

الإسلام ديننا
دُروس في السيرة
الثاني الثانوي
لجنة المناهج
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م





المحتويات

مقدمة لجنة المناهج

بسم الله الرحمن الرحيم

نظـرًا للحاجة العاجلة إلى مناهج تُلبّـي متطلبات مشاريع التعليم الدينـي الإسلامي لجميع المراحل -ابتدائـي، إعـدادي، ثانوي- وفق خطـة التعليم طوال السنـة وبمنهجية المراحل، وهـي حاجةٌ مُلِحَّةٌ لا تحتمـل التأخـير، ونظـرًا إلى أنَّ طبيعة العمل في إنجـاز كُتُبٍ دراسيَّة تُلبّي هـذه الحاجة بالصورة المطلوبـة، والتدقيق اللازم يأخذُ وقتًا طويلاً، فقد ارتـأت لجنة المناهج أن تقوم بإعداد هذه السلسلة بصـورة مؤقتـة، وبعجالة مـن أمرنا قمنا بجمع مـا توفَّر لنا من كُتُـبٍ تعليميَّةٍ وكرّاسـاتٍ من جهاتٍ موثوقـة، وقمنا بترتيبها وتقسيمها واختيار المناسـب منها، والتصرف في النصوص كثيرًا، مع إجراء مراجعة عامة للمحتوى.

فهذه المناهج المؤقتة مستفادة من عدَّةِ مصادر، وهي:

جميع المناهج المطبوعة للمجلس الإسلامي العلمائي في البحرين.

بعض مقرّرات مركز الهدى للدراسات الإسلامية.

بعض كرّاساتِ مشروع تعليم الصلاة والقرآن بقرية الدراز.

بعض مناهج جماعة الهُدى للتعليم في القطيف.

بعض إصدارات مركزِ المعارف للدراسات والبحوث الإسلامية.

تنويه مهم

يرجى من الأساتذة الكرام وإدارات التعليم الديني أن يتفضلوا بموافاتنا بملاحظاتهم واقتراحاتهم؛ لتعديل وتطوير هذه المناهج، وشكرًا.

١

الدرس الأول

عصر الإمام علي عليه السلام ١

الدرس الأول

عصر الإمام علي عليه السلام ١

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى عصر الإمام عليّ عليه السلام.

٢. أن يتبيّن أحداث السقيفة وموقف الإمام عليه السلام منها.

٣. أن يتبيّن كيفيّة مواجهة الإمام عليه السلام للانحراف السياسيّ.

تمهيد

ينقسم عصر الإمام عليّ عليه السلام إلى عهدين متميّزين هما:

عهد الخلفاء الثلاثة، وعهد حكومته عليه السلام.

ويبدأ الأوّل منهما بوفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الثامن والعشرين من صفر سنة ١١ هجرية وينتهي بمقتل عثمـان، ويبدأ الثاني منهما بالبيعة له على الحكم والقيادة المباشرة للدولة والأمّة الإسلاميّة وينتهي باستشهاده عليه السلام.

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يهيء لما بعد رحلته

وعلى الرغم من الجهود العظيمة الّتي بذلها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في تربية الأمّة وإعداد أفرادها لتحمّل المسؤوليّات، وتأسيسه للدولة الإسلاميّة، إلّا أنّ غيابه صلى الله عليه وآله وسلم ترك فراغاً كبيراً لا سيّما مع وجود خطّ النفاق واستفحاله، كما أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يألُ جهداً في تهيئة الأرضية السياسيّة والاجتماعيّة اللازمة للخليفة من بعده، وتأكيده الدائم على الولاية للإمام عليّ عليه السلام بأمرٍ من الله تعالى، لكنّ ذلك كلّه لم يمنع من نشوء وظهور عوامل يُخشى معها أن تؤدّي إلى انهيار الدولة الإسلاميّة وضياع الرسالة المطهّرة.

لذلك كان على الإمام عليّ عليه السلام - وهو المؤتمن من الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم - أن يحافظ على كلّ ثمار الرسالة الخاتمة بما فيها دولة الرسول وأمّته، وصيانة الرسالة والشريعة من أيّ تحريف وتزييف وضياع.

أحداث السقيفة

توفي رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يكن حوله في اللحظات الأخيرة من حياته سوى عليّ عليه السلام وبني هاشم. وقد علم الناس بوفاته من الضجيج والعويل، فأسرعوا وتجمّعوا في المسجد وخارجه، وإذا بموقف غريب يصدر عن عمر بن الخطاب[1] إذ خرج بعد أن دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله والسيف في يده يهزّه ويقول: إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله قد مات، إنّه والله ما مات ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران[2]. ولم يهدأ عمر حتّى وصل أبو بكر إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فكشف عن وجه النبيّ وخرج مسرعاً، وقال: أيّها الناس، من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت. وفي الوقت الّذي كان فيه الإمام عليّ عليه السلام وأهل بيته يقومون بتجهيز النبيّ والصلاة عليه ودفنه، كانت جماعة من الأنصار تجتمع في سقيفة بني ساعدة لتدبير أمر الخلافة برئاسة سعد بن عبادة زعيم الخزرج[3]، وخرج إليهم أبو بكر وعمر ومعهما أبو عبيدة ومن ثمّ لحقهم آخرون.

وانقسم الناس إلى فريقين: الحزب القرشيّ – أو المهاجرين–، والأنصار، وتنازعوا في أمر الخلافة، وكلّ فريق يدّعي بأنّ الأحقيّة له.

وكانت حجّة الحزب القرشيّ في السقيفة ضدّ الأنصار مبنيّة على أمرين:

١. أنّ المهاجرين أوّل الناس إسلاماً.

٢. أنّهم أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأمسّهم به رحماً.

وقد أدان هؤلاء أنفسهم بهذه الحجّة، وذلك لأنّ الخلافة إذا كانت بالسبق إلى الإسلام والقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وآله - كما يدّعون - فهي للإمام عليّ عليه السلام وحده، لأنّه أوّل الناس إسلاماً وإيماناً وتصديقاً بالرسالة الإسلاميّة، وأخوه بمقتضى المؤاخاة، وابن عمّه نسباً وأقرب الناس إلى نفسه وقلبه بلا شكّ في ذلك.

---

(١) أمّا أبو بكر فقد كان في السُّنح، والسُّنح: مكان يبعد عن المدينة بميل أو أكثر قليلاً.

(٢) الكامل في التاريخ، الشيخ عزّ الدّين أبو الحسن عليّ بن أبي كرم الشيباني المعروف بابن الأثير:٢/٣٢٣. دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

(٣) تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، محمّد بن جرير، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم:٢/٢٣٣، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٧٦م.

أمّا الأنصار فلم يكونوا على رأيٍ واحد، ولم يحضر في هذا اللقاء خيارهم، وهم البدريّون من أمثال: أبي أيوب الأنصاريّ، حذيفة بن اليمان، عبادة بن الصامت.

ونقل عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال في شأن الخلافة: «واعجباً أتكون الخلافة بالصحابة، ولا تكون بالصحابة والقرابة»، ويروى عنه عليه السلام شعر في هذا المعنى:

فإن كنتَ بالشورى ملكتَ أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غُيَّبُ

وإن كنتَ بالقُربى حججتَ خصيمهم فغيرُك أولى بالنبي وأقرب[1]

هذا مع العلم أنّ الأنصار – وهم الثقل الأكبر في جمهور المسلمين – كانوا يعلمون جيّداً النصوص النبويّة ويحفظونها في شأن العترة الطاهرة، وقد شهدوا تنصيب الإمام عليّ عليه السلام في غدير خم، وأوصاهم النبيّ صلى الله عليه وآله به وبأهل بيته عليهم السلام. لكنّ المرجّح أنّ مسارعة بعضهم إلى عقد الاجتماع في السقيفة هو لعلمهم المسبق بنوايا قريش في صرف الخلافة عن صاحبها الشرعيّ وهو الإمام عليّ عليه السلام، وتخوّفهم من العزلة السياسيّة والإدارية. وممّا يؤيّد هذا أنّ قرارات الأنصار لم تكن حاسمة، وكانوا متردّدين في الكلام، لكنّ موقفهم ولقاءهم في السقيفة هيّأ الفرصة السياسيّة الثمينة لذلك الجناح والفريق المترقّب للفوز بالسلطة، ففُتح باب الصراع على مصراعيه بعيداً عن الأحكام الإسلاميّة؛ إذ قدّمت فيه الحسابات القبليّة على الحسابات الشرعيّة، وعلى مصلحة الرسالة. وعلى كلّ حال، فإنّ النتيجة الّتي أسفر عنها اجتماع السقيفة هي تحويل مسار الخلافة عن صاحبها بعد جدالٍ طويل ونقاش بين الفريقين.

إقصاء الإمام عليه السلام عن الخلافة

نلاحظ أنّ هناك تدبيرا محكماً لدى الخطّ المناوئ لعليّ عليه السلام لأخذ الخلافة منه من خلال ما يلي:

١. بقاؤهم في المدينة وتخلّفهم عن جيش أسامة، وذلك عندما عرفوا بمرض النبيّ صلى الله عليه وآله.

٢. حضورهم الدائم قرب الرسول صلى الله عليه وآله ومحاولتهم الحيلولة دون حصول شيء يدعم ولاية الإمام عليّ عليه السلام، فكان الشغب في مجلس النبيّ صلى الله عليه وآله تحت الشعار الّذي رفعه بعضهم: "حسبنا كتاب

(١) خصائص الأئمّة، الشريف الرضيّ أبو الحسن محمّد بن أبي أحمد الطاهر: ٢٠، مجمع البحوث الإسلاميّة، مشهد، ربيع الثاني، ١٤٠٦هـ.

الله"، ثمّ اتّهام النبيّ المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم بغلبة الوجع عليه وأنّه يهجر[٢].

٣. السرعة في البتّ بموضوع الخلافة وإتمام البيعة، عبر استغلالهم الفرصة بانشغال الإمام عليّ عليه السلام وبني هاشم بمراسم تجهيز النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ودفنه.

٤. سعيهم لتحييد الأنصار وإبعادهم عن ميدان التنافس السياسيّ بدعوى أنّهم ليسوا عشيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

٥. الترتيب في أخذ البيعة أوّلاً من الأنصار، لأنّ قريشاً لو بايعت الخليفة الجديد، لما كان لبيعتها أدنى قيمة واقعية، ولأمكن للإمام عليه السلام فيما بعد أن يقيم الحجّة على قريش.

وعلى الرغم من محاولات هؤلاء في كسب أصوات المسلمين بقيت ثلّة من المهاجرين والأنصار إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام ولم يخضعوا، ومن هؤلاء العبّاس عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ولجأ هؤلاء لفرض رأيهم وسلطتهم على الإمام عليه السلام ومن معه، إلى درجة أنّهم هاجموا بيت الإمام عليّ عليه السلام مع علمهم بوجود فاطمة الزهراء عليها السلام فيه، وأضرموا النار به[٣]؛ لإخراج من فيه وأخذ البيعة منهم بالقوّة.

موقف الإمام عليه السلام من اجتماع السقيفة

لم يكن الإمام عليّ عليه السلام طامعاً وساعياً في استلام الخلافة والتربّع على عرشها مثل الآخرين، إذ كان همّه الأوّل والأخير تثبيت دعائم الإسلام ونشره، وإعزاز الدِّين وأهله، وإظهار عظمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحثّ الناس على الاقتداء بمنهجه، وهو المؤهّل للخلافة رساليّاً والمبايَع بها قبل سبعين يوماً من وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. إلّا أنّ نفوس القوم أضمرت ما ينافي وصايا نبيّهم في غزوتي أُحد وحنين وغيرهما، وأغراهم الطمع في سلطان الإسلام بغيرِ حقّ فتركوا نبيّهم مطروحاً بلا دفن، كما تركوه وفرّوا عنه في حياته عند الشدائد والهزاهز.

---

(٢) بحار الأنوار، محمّد باقر المجلسي: ٢٢/٤٦٨. مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م. وكان ابن عباس يقول: "إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب.." وذكر البخاري هذه الحادثة في صحيحه مع تغييره لعبارة "إنّه يهجر" بـ "غلب عليه الوجع"، راجع صحيح البخاري ج ٩/٧.

(٣) راجع: الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق محمّد طه الزيني: ١٩/١، مؤسّسة الحلبي وشركائه، ١٩٦٧م.

وقد استفاضت النصوص الواردة عن الإمام عليه السلام الّتي تفصح عن حقيقة ما جرى بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من الانحراف السياسيّ، وتكشف النقاب عن أسباب هذا الانحراف بشكلٍ لا يدع مجالاً للريب في صحّة ما ذكرناه، وفي صوابيّة موقف الإمام عليه السلام الّذي يستند إلى دليل واضح وبرهان ثاقب.

فمن هذه النصوص:

قوله عليه السلام في الخطبة الشقشقيّة: «أما والله لقد تقمّصها[1] ابن أبي قحافة، وإنّه ليعلَمُ أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى»[2].

وحين سأله بعض أصحابه: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به؟! قال عليه السلام: «...أمّا الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً والأشدّون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نوطاً[3]، فإنّها كانت أثرةً شحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين، والحَكَم الله، والمعْوَد إليه القيامة»[4].

وقال عليه السلام: «اللّهم إنّي أستعديك على قريش ومن أعانَهم، فإنّهم قطعوا رَحِمي وصغّروا عظيم منزلتي وأجمعوا على منازعتي أمراً هُوَ لي»[5].

وتضمّنت هذه النصوص التصريح بعدّة حقائق مهمّة:

١. أنّ الخلافة هي حقّ الإمام عليه السلام دون غيره.
٢. أنّ هناك من حاول تقمّص منصب الخلافة بغير حق.
٣. أنّ قريشاً مع من أعانهم هم الّذين خطّطوا للاستيلاء على الخلافة ومنازعة الإمام عليّ عليه السلام.
٤. أنّهم أبعدوا أمير المؤمنين عليه السلام عن شؤون الخلافة واستأثروا بها.

هذا فضلاً عن غيرها من النصوص الكثيرة الّتي تضمّنت مثل هذه المعاني والحقائق.

ومن هنا يتّضح للباحث وجود خطّين فكريّين، وسلوكين متضاربين:

أحدهما: يرى أنّ استلام السلطة إنّما هو وسيلة لتحقيق القيم العُليا، ولا تُسحق القيم من أجل

(١) الضمير يعود إلى الخلافة، والّذي يطالع هذه الخطبة لا يرتاب في المراد.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٣.

(٣) النّوط: التعلّق، والأثرة: الاختصاص بالشيء دون مستحقّه.

(٤) م.ن، الخطبة: ١٦٢.

(٥) م.ن، الخطبة: ١٧٢.

الوصول إلى السلطة، وأنّ الحقّ هو الأحقّ بالاتّباع دون غيره.

الثـاني: يرى استـلام السلطة هدفاً أعلى، والقيمَ وسائلَ قد تخدم هـذا الهدف وقد لا تخدمه، ولا ضرورة للخضوع لها.

وقـد تَمثّل الخـطّ الأوّل في سلوك الإمام عليّ عليه السلام ، والأئمّة من بنيه عليهم السلام على أكمل وجه، بينما تمثّل الخطّ الثاني في من ناوأهم.

خلاصة الدّرس

- ينقسم عصر الإمام عليّ عليه السلام إلى عهدين: عهد الخلفاء وعهد الحكم العلويّ.
- نصّ الإمام عليّ عليه السلام على أنّ هناك تخطيطاً قد حيك لابتزاز حقّه عليه السلام.
- وقد صبر الإمام عليه السلام كي يحقّق الأهداف الكبرى للرسالة.
- بقيَت ثلّة من المهاجرين والأنصار إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام.

٢

الدرس الثاني

عصر الإمام علي عليه السلام ٢

الدرس الثاني

عصر الإمام علي عليه السلام ٢

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى عصر الإمام عليّ عليه السلام .

٢. أن يتبيّن أحداث السقيفة وموقف الإمام عليه السلام منها.

٣. أن يتبيّن كيفيّة مواجهة الإمام عليه السلام للانحراف السياسيّ.

الإمام عليّ عليه السلام ومضاعفات السقيفة

برزت المواقف الساخطة على ما نجمت وأسفرت عنه حادثة السقيفة، فوقف الصفوة الأبرار من الصحابة مع الإمام علـيّ عليه السلام في المطالبة بحقّه الشرعيّ في الخلافة، واحتجّوا بصلابة وثقة وعلانية، بالحجّة والبرهان والأدلّة الشرعيّة، ومن هؤلاء خزيمة بن ثابت، وسهل بن حنيف، وعمّار بن ياسر، حيث قال: «يا معاشر المسلمين! إن كنتم علمتم، وإلّا فاعلموا أنّ أهل بيت نبيّكم أولى به، وأحقّ بإرثه، وأقوم بأمور الدِّين... فمروا صاحبكم فليردّ الحقّ إلى أهله...».

وكما أشرنا سابقاً فإنّ القوم حاولوا إرغام الإمام عليه السلام وقسره على البيعة، فأرسلوا قوّة عسكرية أحاطت بداره ودخلوها بعنف[1]، وأخرجوه منها بصورةٍ لا تليق بمكانته، وجيء به، فصاحوا به بعنف: بايع، فأجابهم عليه السلام بمنطق الواثق: «أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي.. نحن أولى برسول الله صلى الله عليه وآله حيّاً وميتاً، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون...»[2] .

ووقف الإمام عليّ عليه السلام عند مفترق طرق، في كلٍّ منها حرج شديد على نفسه:

١. أن يبايع دون ممانعة، فيحفظ وجوده ويسلم من أذاهم، وهذا غير ممكن لأنّه يعني إمضاءه عليه السلام.

٢. أن يسكت وفي العين قذى وفي الحلق شجا، ويصبر ما دام الجور عليه خاصّة.

٣. أن يعلن الثورة.

---

(١) الإمامة والسياسة، م.س:١/٣٠، وتاريخ الطبري، م.س:٢/٤٤٣.

(٢) م.ن: ١/٢٨.

فمـا كان مـن الإمام عليّ عليه السلام سوى أن يختار الطريق الثاني ليحقّـق أكبر قدرٍ ممكن من الأهداف الرساليّة الّتي جعله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصيّاً عليها.

ولا ينبغي للباحث أن يغفل عن موقف الإمام عليّ عليه السلام من أبي سفيان الّذي عرض على الإمام عليه السلام البيعـة له، فواجهـه عليه السلام بالرفض وذلك لعِلم الإمام عليه السلام بنواياه الخبيثـة. وكان للأمويّين مطمع سياسيّ كبير في نيل نصيب مرموق من الحكم، واسترجاع شيء من زعامتهم في الجاهلية، ومن هنا فإنّهـم عندمـا عارضوا نتائج السقيفـة لم يعبأ الحاكمون بمعارضتهم ولا بتهديـدات أبي سفيان وما أعلنـه من كلمات الثورة لعلمهم بطبيعة النفس الأمويّة وشهواتها السياسيّة والماديّة، فكان من السهل كسـب الأمويّين إلى جانب الحكم القائم فأباح لنفسـه -كما يذكر المؤرخون[٣]- أن يدفع لأبي سفيان جميع ما في يده من أموال المسلمين وزكواتهم ثمّ جعل للأمويّين بعد ذلك حظّاً من العمل الحكوميّ في عدّة من المرافق الهامّة.

الانحراف السياسيّ ونتائجه

تشـير المرحلـة الأولى من حياة الأمّة الإسلاميّـة، في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى وجـود اتّجاهين رئيسين متخالفين قد رافقا نشوء الأمّة منذ بداية التجربة الإسلاميّة وهما:

١. الاتّجـاه الّذي يؤمن بالتعبّد بالدِّين وتحكيمـه والتسليم المطلق للنصّ الدينيّ في كلّ جوانب الحياة (وهو اتّجاه مدرسة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم)[٤].

٢. الاتّجـاه الّـذي لا يـرى أنّ إيمانـه بالدِّيـن يتطلّب منـه التعبّد إلّا في نطـاقٍ خاصّ مـن العبادات والغيبيّات، ويؤمن بإمكانيّة الاجتهاد وجواز التصرّف على أساسه بالتغيير والتأويل في النصّ الدينيّ وفقاً للمصالح[٥].

---

(٣) راجع شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، أبو حامد ابن هبة الله المدائني، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم:١/١٣٠، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، قم، ١٩٦٤م.

(٤) تاريخ الطبري، م.س:٢/٢٣٧.

(٥) راجـع للتفصيـل: معـالم المدرستين، السيّد مرتضـى العسكريّ، مؤسسة النعمـان للطباعة والنشر، بـيروت، ط ١، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م.

وهـذان الاتّجاهـان اللذان بدأ الصراع بينهما في حياة النبـيّ ﷺ ، قد انعكسا على موقف المسلمين مـن خلافـة الإمام عليّ عليه السلام بعد النبيّ ﷺ . وقد تجسّد الاتّجـاه الشيعيّ، منذ اللحظة الأولى، في إنكار ما اتّجهت إليه السقيفة من تجميد لولاية وخلافة الإمام عليّ عليه السلام ، وإسناد السلطة إلى غيره.

• ويرى الاتّجاه الأوّل أنّ إمامة أهل البيت عليهم السلام بدءً بالإمام عليّ عليه السلام تُعبِّر عن مرجعيّتين: إحداهما المرجعيّة التشريعيّة والفكريّة، والأخرى المرجعيّة في العمل القياديّ والاجتماعيّ.

• وأمّـا الاتّجـاه الآخـر في المسلمـين الّذي قام علـى الاجتهاد بدلاً عـن التعبّد بالنصّ، فقد قرّر في البدء منذ وفاة الرسول الأعظم ﷺ تسليم المرجعيّة القياديّة الّتي تمارس السلطة إلى رجالات من المهاجرين وفقاً لاعتبارات من عند أنفسهم.

وعلى هذا الأساس تسلّم أبو بكر السلطة بعد وفاة النبيّ مباشرة على أساس ما تمّ من تشاور محدود في مجلس السقيفـة. ثمّ تـولّى الخلافة عمر بنصّ محدّد مـن أبي بكر، وخلفهمـا عثمان بنصّ غير محدّد من عمر[1].

نتائج الاتجاه الثاني (القائم على الاجتهاد):

وكان من نتائج هذا الاجتهاد بعد ثُلث قرنٍ من وفاة الرسول القائد ﷺ أن تسلّل أبناء الطلقاء الّذين حاربوا الإسلام بالأمس إلى مراكز السلطة. هذا فيما يتّصل بالمرجعيّة القياديّة الّتي تمارس السلطة.

وأمّـا بالنسبـة إلى المرجعيّة الفكريّة فقد كان من الصعب على هؤلاء إقرارها لأهل البيت عليهم السلام ، - بعد أن أدّى الاجتهاد إلى انتزاع المرجعيّة القياديّة منهم-لأنّ إقرارها كان يعني خلق الظروف الموضوعيّة الّتي تمكّنهم عليهم السلام من تسلّم السلطة والجمع بين المرجعيّتين.

ونظـراً لعدم إمكانيّة توفّـر المرجعيّة الفكريّة في أيّ صحابيّ بمفرده فقد ظلّ ميزان المرجعيّة الفكريّة يتأرجـح فـترةً من الزمن، وظلّ الخلفـاء في كثيرٍ من الحالات يتعاملون مـع الإمام عليّ عليه السلام ، على أسـاس إمامتـه الفكريّة، حتّى قال الخليفة الثاني مرّات عديدة: "لولا عليّ لهلك عمر، ولا أبقاني الله لمعضلـة ليس لها أبو الحسن"[2] . ومع مرور الزمن وبفعل سياسة إقصاء أهل البيت عليهم السلام تمكّن هؤلاء من إسناد المرجعيّة الفكريّة إلى بديلٍ آخر، وهذا البديل ليس هو شخص الخليفة، بل الصحابة.

(١) راجع قصّة استخلاف عمر في تاريخ الطبري، م.س:٢/٢٣٤، وقصّة الشورى في استخلاف عثمان في :٢/٥٨.

(٢) الطبقات الكبرى، محمّد ابن سعد:٢/٣٣٩، دار صادر، بيروت.

وهكذا وُضِعَ بالتدريج مبدأ مرجعيّة الصحابة ككلّ بدلاً عن مرجعيّة أئمّة أهل البيت عليهم السلام .

لماذا لم يحتجّ الإمام عليّ عليه السلام بالنصّ؟

يمكن اختصار الإجابة عن هذا السؤال بأنّ سكوت أمير المؤمنين عليه السلام عن المواجهة بالنصّ إلى حينٍ كان لجملة أمور، منها:

١. أنّه لم يكن يجد في رجالات تلك الساعة من يطمئنّ إلى شهادته بذلك.

٢. أنّ الاعتراض بالنصوص كان سيُلفت أنظار الحكّام إلى قيمتها المعنويّة الهامّة، فيستعملوا شتّى الأساليب لمحوها والتخلّص منها.

٣. أنّ معنى الاعتراض بها التهيّؤ للثورة بأوسع معانيها، وهذا ما لم يكن يريده الإمام عليه السلام .

٤. إنّ اتّهام الخليفة عمَر للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في آخر ساعاته بأنّه يهجر زاد الإمام عليّاً عليه السلام معرفةً بحال هؤلاء، ومدى استعدادهم لنسف القيم والنصوص في سبيل مراكزهم، ممّا جعله يخاف من تكرّر شيء من ذلك لو أعلن عن نصوص إمامته[٣].

تخطيط الإمام عليه السلام لمواجهة الانحراف:

إنّ للإمام المعصوم عليه السلام واجباتٍ تتلخّص في الحرص على سلامة الرسالة الإسلاميّة وديمومتها في الحياة، ومن هنا اجتهد الإمام عليّ عليه السلام في تعميق الرسالة فكريّاً وروحيّاً وسياسيّاً في صفوف أبناء الأمّة الإسلاميّة، وحاول تقديم الوجه المشرق للرسالة الإسلاميّة عبر أساليب عديدة منها:

١. التدخّل الإيجابيّ لتوجيه انحراف الزعامة، بعد أن كانت لا تحسن معالجة كثير من القضايا البسيطة فضلاً عن المعقّدة، فكان دوره عليه السلام دور الرقيب الرساليّ الّذي يتدخّل كلّما لزم الأمر.

٢. كان عليه السلام يتصدّى للرّد على شبهات المنحرفين بعد اتّضاح عجز المتصدّين للزعامة.

٣. تقديم المثل الأعلى للإسلام والصورة الناصعة للحكم الإسلاميّ والمجتمع الرساليّ.

٤. تربية ثلّة صالحة من المسلمين تُعين الإمام عليه السلام في حركته الإصلاحيّة والتغييريّة.

٥. إحياء سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحثّ على تداولها وتدوينها والاهتمام بالقرآن تلاوةً وحفظاً وتفسيراً وتدويناً، إذ إنّهما عماد الشريعة، فلا بدّ أن تتفهّم الأُمّة حقائق القرآن الكريم ومفاهيم

(٣) راجع: فدك في التاريخ، محمّد باقر الصدر تحقيق عبد الجبار شرارة: ١٠٦ ـ ١١٢، مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، ط ١، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م.

السنّة الشريفة[١] .

ومـن هنـا كان جمع القرآن الكـريم على رأس ما قام به الإمام علـيّ عليه السلام بعد ارتحال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فقـد عكف ستّة أشهر في داره مشغولاً بهذه المهمّة، وكان يقول لمن يطالبه بالخروج من البيت ومبايعة أبـي بكر: «آليت علـى نفسي يميناً ألّا أرتدي بـرداء إلّا للصلاة حتّى أجمع القـرآن»[٢] فجمعه. ونقل السيوطيّ أنّه جمع القرآن على ترتيب نزوله بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وأشار إلى عامّه وخاصّه، ومطلقه ومقيّـده، ومحكمـه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخـه، وسننه وآدابه، كما أشـار إلى أسباب النزول، ثمّ توجّـه إلى عمـلٍ آخـر لا يقلّ أهمية عـن الأوّل وهو جمع ما دوّنـه من أحكام أملاهـا عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كتاب واحد سُمِّيَ بـ"الجامعة" أو "كتاب عليّ"، وهو كتاب طوله سبعون ذراعاً مكتوب على الجلد. وقد احتوت هذه الجامعة كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام على جميع الأحكام حتّى "أرش الخدش". وهذا الكتاب توارثه أهل البيت عليهم السلام .

ولـولا هذا العمل الجبّار لاندرست الأحـكام الشرعيّة ولما كُتب للرسالة الإسلاميّة الاستمرار والبقاء. وهذا كان أهمّ بكثير من خلافة وزعامة لفترة زمنية محدودة ما تلبث أن تنتهي.

خلاصة الدّرس

- لجـأ الحزب الحاكم إلى مختلف الوسائل لأخـذ البيعة من الإمام عليه السلام ومن ذلك دخولهم على بيت فاطمة عليها السلام وإضرام النار فيه.
- انتصـر فريـق المهاجريـن في السقيفة، ولم يعبأوا بمعارضـة أحد، ولكنّهم سجّلـوا على أنفسهم دليـلًا يحكمهـم ويضعّف موقفهم تجاه الهاشميّين الّذين هـم أقرب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من سائر المهاجرين.
- تتلخّص جذور الانحراف السياسيّ في وجود تيّار منذ عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن مؤمناً بضرورة التعبّـد الكامل بالنصوص النبويّة، بل يرى لنفسه حقّ الاجتهاد والعمل على أساس المصالح الّتي يراها لنفسه.
- أنتـج هذا التيّـار إقصاءً لأهل البيـت عليهم السلام عن مجال المرجعيّـة السياسيّة ثمّ تعطيـل مرجعيّتهم الفكريّة واستبدالها بمرجعيّة الصحابة بشكلٍ عامّ.

(١) أهل البيت تنوّع أدوار ووحدة هدف، محمّد باقر الصدر: ٥٩ ـ ٦٩.

(٢) الاحتجاج، الشيخ أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسي: ١/٩٨، دار النعمان، النجف، ١٣٨٦ هـ، ١٩٦٦م.

- لم يحتجّ الإمام عليه السلام بالنصوص. بعد أن ترك خيار الثورة المسلّحة. لأنّ الاحتجاج بها كان يؤدّي إلى ضياعها وضياع سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.
- مـن إنجازات الإمام عليه السلام بعد الانحراف السياسيّ الحاصل عقيب وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإبعاده عن مركز القيادة:
  ١. صيانة الشريعة الإسلاميّة من أيدي العابثين ومن التصدّع والانهيار،
  ٢. وصيانة الأمّة الإسلاميّة وتحصينها ضدّ التحدّيات المقبلة،
  ٣. وممارسته لدور الرقابة المستمرّة للجهاز الحاكم،
  ٤. وإسداء النصيحة عند المصلحة.
- ومن أهمّ إنجازاته أيضاً: جمعه للقرآن الكريم، وتدوينه للجامعة.

٣

الدرس الثالث

الإمام علي عليه السلام في عهد الخلفاء

الدرس الثالث

الإمام علي عليه السلام في عهد الخلفاء

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى مواقف الإمام عليه السلام في عهد الخلفاء.

٢. أن يتبيّن محنة الشورى وخلفيّاتها أيّام الخليفة الثاني.

٣. أن يستذكر أسباب الثورة على عثمان.

٤. أن يتبيّن كيفيّة البيعة للإمام عليه السلام ، والإصلاحات الّتي قام بها عليه السلام .

من مواقف الإمام عليه السلام في عهد أبي بكر

يقول الإمام عليّ عليه السلام : «فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أنّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله وسلم عن أهل بيته، ولا أنّهم مُنَحّوهُ عنّي من بعده، فما راعني إلّا انثيال الناس إلى أبي بكر يبايعونه، فأمسكت حتّى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمّد، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به أعظم من فوت ولايتكم...»[1] .

كلّ الأحداث الّتي جرت بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم تُنسِ الإمام عليّاً عليه السلام أنّه الوصيّ على هذه الأمّة وعلى تطبيق الرسالة الإسلاميّة.

ورغم إقصاء الإمام عن القيادة وقف عليه السلام ليدلي بآرائه الصائبة، موضّحاً قواعد الدِّين الصحيحة في كلّ موقف، فكان عليه السلام الميزان في شؤون الحياة الإسلاميّة من قضاء واجتماع وإدارة في عهد أبي بكر وما تلاه من فترات حكم الخلفاء. ولم تطل أيّام أبي بكر فقد ألّمت به الأمراض وأشرف على الموت، وقد صمّم على أن يولّي عمر الخلافة من بعده، فاعترض أكثر المهاجرين والأنصار. لكنّ أبا بكر أصرّ على موقفه وأحضر عثمان وحده ليكتب عهده لعمر.

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٦٢.

مآخذ الإمام عليه السلام على وصيّة أبي بكر

لم يكن الإمام عليه السلام راضياً بما فعله أبو بكر للأسباب التالية:

١. إنّ أبا بكر لم يستشر أحداً من المسلمين في تقرير مصير الخلافة إلّا عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفّان اللذين كانا على معرفة تامّة بميول أبي بكر لاستخلاف عُمر من بعده.

٢. الإصرار على إبعاد الإمام عليّ عليه السلام عن الساحة السياسيّة ومسألة تقرير مصير الخلافة.

٣. إنّ أبا بكر فرض عمر فرضاً على المسلمين.

٤. إنّه ناقض نفسه في دعواه بالسير على منهاج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه كان يدّعي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم توفّي ولم يعهد لأحدٍ في شأن الخلافة، في حين يوصي لعمر من بعده.

٥. إنّه هيّأ المُلك لبني أميّة، وذلك من خلال إثارة طمعهم في الخلافة وتشجيعهم عليها بقوله لعثمان: لولا عمر ما عدوتك[٢] . وعثمان يميل لبني أميّة بل هو منهم.

النصيحة والمشورة للخلفاء

وقف الإمام عليّ عليه السلام بروحٍ مغمورة بالمسؤوليّة إزاء الخلفاء حرصاً على مصلحة الدين، ممّا حتّم عليهم أن يرجعوا إلى رأيه ومشورته في القضايا المهمّة ومنها:

١. في خلافة أبي بكر حين أراد المسلمون غزو الروم، فاستشار الإمام عليه السلام فأشار إليه بأن يفعل وأخبره بنتيجة المعركة قائلاً: «إنْ فعلت ظفرت...»[٣] .

٢. عندما أراد عمر بن الخطاب غزو الفرس جمع قادة الجيش مع كبار الصحابة، فأشار عليه عثمان أن يكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثمّ يسير عمر بجيشٍ من أهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة.

فاعترض الإمام عليه السلام ولم يُحبِّذ خروج أهل الشام؛ لأنّهم محاطون بالأعداء وهم الروم، وخروج أهل اليمن؛ لأنّهم محاطون بأعداء كامنين لهم في بلاد الحبشة، ولم يحبِّذ خروج أهل الحرمين إلى الحرب؛ لأنّ العرب قابعون في الأطراف يستغلّون غياب القوّة العسكريّة فيفعلون ما يريدون.

---

(٢) شرح نهج البلاغة، م.س: ١/١٦٤.

(٣) تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي: ٢/١٣٣، مؤسسة نشر فرهنك أهل البيت عليهم السلام، إيران، ودار صادر، بيروت.

وكان مقترح الإمام أن يستقرّ أهل الأمصار في أماكن سكناهم ويُكتب إلى أهل البصرة فينقسموا إلى ثلاث فرق... فقال عمر: هذا هو الرأي[1] .

٣. أراد عمر أن يرجم امرأةً مجنونة اتّهمت بالزنا، فردّ الإمام عليه السلام قضاء عمر. وذكّره بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتّى يستيقظ، وعن الطفل حتّى يحتلم، وعن المجنون حتّى يبرأ أو يعقل». حينذاك قال عمر: لولا عليّ لهلك عمر[2]. من هنا نجد أنّ الموجِّه غير المباشر لمجريات الأمور باتّجاه صيانة الأمّة والرسالة والكيان الإسلاميّ من تزايد الانحراف واشتداده كان هو الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام من خلال ما ذكرناه وغير ذلك من مراجعات للخلفاء الثلاثة يقف المراجع للتاريخ على كثير منها.

محنة الشورى والمؤاخذات عليها

إذا كانت السقيفة وبيعة أبي بكر فلتةً وقى الله المسلمين شرّها ـ كما قال عمر ـ، فإنّ مسألة الشورى كانت أشدّ وأدهى وأمرّ. فقد امتُحِن المسلمون فيها امتحاناً عسيراً، وزرعت لهم الفتن، وتبيّن معها الهدف الرئيس المتمثّل بإقصاء الإمام عليّ عليه السلام عن الحكم بسبب تركيبة أعضاء الشورى السداسيّة الّتي صرّح عمر عنها [3]. ويوضّح الإمام واقع الحال في حديثه مع عمّه العباس عندما استفسره فبادره قائلاً: «يا عمّ، لقد عُدِلَتْ عنّا»، فقال العباس: من أعلمك بذلك؟ فقال عليه السلام: «قُرِن بي عثمان، وقال عمر: كونوا مع الأكثر، فإن رضيَ رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الّذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمّه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون، فيولّيها عبد الرحمن عثمان أو يولّيها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني»[4].

---

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ٣/٨.

(٢) فضائل الخمسة من الصحاح الستّة، السيد مرتضى الفيروز آبادي: ٢/٣٠٩، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

(٣) جعل عمر الشورى في ستّة أشخاص محتجّاً بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال عنهم إنّهم من أهل الجنة وهم: الإمام عليّ عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله.

(٤) تاريخ الطبري، م.س: ٥/٢٢٦، ويقول عليه السلام ـ في الخطبة الشقشقية: "فيا لله وللشورى، متى اعترض الريب فيّ مع الأوّل منهم حتّى صرت أقرن إلى هذه النظائر لكنّي أسففت إذ أسفّوا وطرت إذ طاروا، فصغى رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره.." نهج البلاغة: ١/٣١.

وتحقّق ما تنبّأ به الإمام عليه السلام وآلت الخلافة إلى عثمان بتواطؤ عبد الرحمن. وبعد أن أوضح للناس خطأهم المتكرّر في الاستخلاف في مصير القيادة قال: «أيّها الناس، لقد علمتم أنّي أحقّ بهذا الأمر من غيري، أما وقد انتهى الأمر إلى ما ترون، فوالله لأُسلمنّ ما سَلِمَتْ أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلّا عليّ خاصّة»(٥) .

ونظام الشورى الّذي وضعه عمر مع مخالفته لنصّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان عارياً عن الصحّة والصواب يحمل التناقض بين خطواته، ويُلاحظ فيه أمورٌ محلّ إشكال ونظر، منها:

١. أنّ الأعضاء المقترحين للشورى لم يحصلوا على هذا الامتياز بالأفضليّة وفق ضوابط الانتخاب. وإطلاق كلمة الشورى على هذا النظام جُزاف، لأنّه لم يكن إلّا ترشيح فرد لجماعة وفرضهم على الأمّة.
٢. الاستهانة بالأنصار ودورهم، فقد طلب عمر حضورهم ولا شيء لهم بل ولا رأي، فالأمر منحصر في الستّة فما معنى حضور الأنصار؟
٣. أنّ عمر ناقض نفسه في عمليّة اختيار العناصر، ففي السقيفة كان يدّعي ويصرّ على أنّ الخلافة في قريش، بينما نجده في هذا الموقف يتمنّى حياة سالم مولى أبي حذيفة ليولّيه الأمر، كما أنّه استدعى أصحاب الشورى دون غيرهم من الصحابة، ثمّ إنّه أمر صهيباً أن يصلّي بالناس ثلاثة أيّام، لأنّ إمامة المصلّين لا ترتبط بالخلافة ولا تستلزمها. وقد كان يناضل يوم السقيفة من أجل استخلاف أبي بكر، وكانت صلاته المزعومة دليله الأوّل على أهليّة أبي بكر للخلافة.
٤. اختيار العناصر الستّة تخطيط واضح بحيث يصل الأمر إلى عثمان.

الإمام عليه السلام وعهد عثمان

تعايش الإمام عليّ عليه السلام مع أبي بكر وعمر، ولم يظهر معارضته العلنية لهما، فقد كان الانحراف في مسيرة الحكومة الإسلاميّة مستتراً، أمّا في فترة حكم عثمان فقد استشرى الفساد ودبّ في أجهزة الدولة بصورة علنية مكشوفة، وانتقلت العدوى إلى فئات المجتمع الإسلاميّ، فوقف الإمام معلناً رفضه واستنكاره على عثمان بصورةٍ علنية.

---

(٥) نهج البلاغة، الخطبة: ٧٤.

ويمكن لنا أن نجمل طبيعة حكم عثمان وملامحه فيما يلي:

إنّ عثمان وصل إلى الحكم وقد تجاوز السبعين عاماً، وكان وَصولاً لأرحامه وَلوعاً بحبّهم وإيثارهم، فقد روي عنه قوله: لو أنّ بيدي مفاتيح الجنّة لأعطيتها بني أميّة حتّى يدخلوا من عند آخرهم. كما أنّ عثمان عاش غنيّاً مترفاً قبل الإسلام، وظلّ على غناه في الإسلام، فلم يكن ليتحسَّس معاناة الفقراء وآلام المحرومين، وقلّد أقرباءه أمور الحكم والسلطة، فاستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط على الكوفة وهو ممّن أخبر النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه من أهل النار، وعبد الله بن أبي سرح على مصر، ومعاوية على الشام، وعبد الله بن عامر على البصرة، وسعيد بن العاص على الكوفة.

وكان عثمان ضعيفاً أمام مروان بن الحكم، يسمع كلامه وينفّذ رغباته، ووالد مروان هو الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله صلى الله عليه وآله الّذي غرّبه عن المدينة ونفاه عن جواره. وأمّا سياسة عثمان المالية فقد كانت امتداداً لسياسة عمر من إيجاد الطبقية وتقديم بعض الناس على بعض في العطاء، إلّا أنّها كانت أكثر فساداً من سياسة سابقه، فقد أثرى بني أميّة ثراءً فاحشاً، وحين اعترض عليه خازن بيت المال قال له: إنّما أنت خازن لنا، فإذا أعطيناك فخذ وإذا سكتنا عنك فاسكت[1] .

وأدّى تزايد الثروة لدى قطاع من المهاجرين والأنصار في أيّام عثمان إلى انتشار روح البذخ والإسراف وشيوع الطبقيّة والانحراف الأخلاقيّ في المجتمع الإسلاميّ. وهنا وقف الإمام عليّ عليه السلام ليعلن رفضه واستنكاره واقع سياسة عثمان، ووقف معه الصحابة الأجلاّء أمثال عمّار وأبي ذرّ. ويصف الإمام عليه السلام عهد عثمان فيقول: «إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلَفِه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خِضْمَةَ الإبل نِبْتَةَ الربيع، إلى أن انتكث عليه فتلُه، وأجهز عليه عملُه، وكبَتْ به بِطْنَتُهُ»[2] .

(١) تاريخ اليعقوبي، م.س: ٢/١٥٣.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة الشقشقيّة: ١/٢٥.

خلاصة الدرس

- كلّ الأحـداث الّتـي جرت بعد وفاة النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم تُنسِ الإمام عليّاً عليه السلام أنّـه الوصيّ على هذه الأمّة وعلى تطبيق الرسالة الإسلاميّة.
- وقف الإمام عليّ عليه السلام بروحٍ مغمورة بالمسؤوليّة إزاء الخلفاء حرصاً على مصلحة الدين.
- أدّى تزايـد الـثروة لدى قطـاع من المهاجريـن والأنصار في أيّـام عثمان إلى انتشـار روح البذخ والإسراف وشيوع الطبقيّة والانحراف الأخلاقيّ في المجتمع الإسلاميّ.

٤

الدرس الرابع

الإمام علي عليه السلام في عهد الخلفاء ٢

الدرس الرابع

الإمام علي عليه السلام في عهد الخلفاء ٢

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى مواقف الإمام عليه السلام في عهد الخلفاء.

٢. أن يتبيّن محنة الشورى وخلفيّاتها أيّام الخليفة الثاني.

٣. أن يستذكر أسباب الثورة على عثمان.

٤. أن يتبيّن كيفيّة البيعة للإمام عليه السلام، والإصلاحات الّتي قام بها عليه السلام.

معارضة سياسة عثمان

هذه السياسة الّتي سلكها عثمان في التولية والعطاء أثارت عليه وعلى عهده موجة سخط عامّة من المسلمين، لما رأوه فيه من عصبية قبلية هو وولاته من بني أميّة.

وكانت أوّل مواجهة للمسلمين معه هي تلك الّتي حصلت نتيجة تساهله مع جريمة القتل الّتي ارتكبها عبيد الله بن عمر بسفكه ثلاثة دماء لم يثبت جُرم لأصحابها، فقد قتل الهرمزان، وجُفينة، وبنت أبي لؤلؤة؛ لمجرّد شبهة اشتراكهم في قتل أبيه!

<u>وانقسم المسلمون حيال هذه الجريمة إلى فريقين:</u>

<u>الأوّل:</u> وهم الأكثريّة وفي مقدّمتهم الإمام عليّ عليه السلام حيث طالبوا بإجراء القصاص على عُبيدالله بن عمر.

<u>الثاني:</u> وهم المقرّبون من الخليفة وكانوا يرون التغاضي عمّا ارتكبه عبيد الله مُعتذرين عن ذلك بأنّه كيف يُقتل عمر أمس، ويُقتل ابنه اليوم؟

ومال عثمان إلى الفريق الثاني وقال: أنا وليّه وقد جعلتها ديَة واحتمالها في مالي[1]. وتعقّدت الأمور واشتدّت المعارضة من كبار الصحابة شيئاً فشيئاً.

---

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ٣/٧٥.

فقد عارض سياسة عثمان في المال والإدارة عبد الله بن مسعود، وكان خازناً لبيت المال، فأمر عثمان بضربه حتّى كسرت بعض أضلاعه.

وعارضه أبو ذرّ الغفاريّ فنفاه إلى الشام، ثمّ إلى الربذة، ولبث فيها حتّى مات غريباً وحيداً سنة ٣٢هـ.

وعارضه عمّار بن ياسر، فشتمه عثمان وضربه حتّى غشي عليه سائر النهار، وعارضه غير هؤلاء من الصحابة من المهاجرين والأنصار في الأحداث الّتي كان يُقدم عليها، والسياسة الّتي كان ينتهجها.

وعند استعراض مواقف الإمام عليّ عليه السلام وصحبه نستطيع أن نرسم خطوطاً عامّة لحركة المعارضة ضدّ عثمان بما يلي:

١. المطالبة بالإصلاح الاجتماعيّ، حيث تفشّت المفاسد الاجتماعيّة نتيجة انتشار الخمر والغناء، وكان من واجب الإمام عليه السلام وصحبه العمل على مواجهة هذه المفاسد.
٢. مراقبة تصرّفات الولاة ومحاسبتهم على سلوكيّاتهم المناقضة للشريعة الإسلاميّة. فقد قام محمّد بن أبي حُذيفة بدورٍ هامّ في محاسبة والي مصر، واستطاع مالك الأشتر إزاحة الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص، وأيقظ أبو ذرّ أهل الشام من كبوتهم.
٣. الدعوة إلى تطبيق العدل في الإنفاق بعد أن ظهرت في عهد عثمان طبقة من الأثرياء موغلة في الثراء، بينما كانت الأكثريّة من عامّة المسلمين تعيش في الفقر المدقع.
٤. تقديم النُصح للخليفة، فقد التزم الإمام عليه السلام وصحبه سياسة ثابتة من النصح والتوجيه. وعلى العكس كان مروان وصحبه يصوّرون للخليفة أنّ ما يحدث كلّه بسبب مواقف الإمام عليّ عليه السلام .

لقد كان الإمام عليّ عليه السلام ينطلق في معارضته للسلطة من موقفٍ إسلاميّ أصيل، فكان يُشكِّل خطّاً في المعارضة الإيجابية الّتي تُساهم في الأعمال الخيّرة الّتي كان يقوم بها الخليفة، بينما كان موقفها من الأعمال المنافية هو تقديم النُصح والتخفيف من الآثار السيّئة لتلك الأعمال.

الثورة على عثمان

تأزّم الوضع العامّ في البلاد الإسلاميّة وتحركّت قطاعات كبيرة من داخل المدينة وبقيّة الأمصار معترضة على سيرة عثمان وعمّاله طالبةً منه العدل والسويّة والعمل وفق التعاليم الإسلاميّة، ولكن لم

تنل إلّا الخيبة والفشل في مساعيها. ودخلت عائشة بنت أبي بكر على خطّ الصراع السياسيّ والدعوة إلى إحداث التغيير في شكل السلطة القائمة، إذ كانت تحاول أن يصل طلحة إلى رئاسة السلطة، فحرّضت الناس على خلع عثمان بل قتله أيضاً[1].

أمّا معاوية فإنّه خطّط بذكاء لمقتل عثمان بعد خذلانه عندما استنجد الأخير به ثمّ كان من المطالبين بدمه! [2].

وتدخّل الإمام عليّ عليه السلام في مسعىً لأنْ يصل إلى حلّ يُغني الأمّة عن فتنة لا تحمد عواقبها، ولكنّ بطانة السوء وضعف الخليفة جعلا مساعي الإمام لا تثمر نجاحاً.

وبعد تفاقم الأمور أسرع عثمان ليستغيث بالإمام عليّ عليه السلام الّذي تمكّن بأسلوبه الحكيم ومكانته في قلوب الجماهير أن يُقنع الثائرين على عثمان بالهدوء والتفاهم مع الخليفة.

استجاب عثمان للجماهير وكتب كتاباً يتعهّد بتنفيذ الإصلاح والسير فيهم بكتاب الله وسيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنّ ضعفه أمام خبث ومكر مروان بن الحكم ومن هو على شاكلته جعله ينكث، فمثلاً كتب عثمان لأهل مصر بتولية محمّد بن أبي بكر عليهم، ثمّ ما لبث أن كتب كتاباً آخر إلى ابن أبي سرح يأمره بقتل محمّد ومن معه.

لقد أساء عثمان إلى الأمّة كثيراً فلم يُبق له صديقاً حميماً إلّا النفعيّين من بني أميّة الّذين غشّوا صحبته وخذلوا نصرته، فتكاثرت الفئات المسلّحة تحوم من أطراف البلاد الإسلاميّة حول المدينة تريد رفع الظلم، وما بقيت للحكومة المركزية سلطة ولا للخلافة هيبة.

وكان لاستعمال العنف والقسوة في التعامل مع المعترضين وإهانتهم ردّ فعلٍ معاكس. وكان مقتل عثمان نقطة تحوّل في الصراعات الدائرة بين وجهات نظر المسلمين. وبلغت المأساة قمّتها بعد مقتل عثمان حيث فُسِح المجال أمام النفعيّين في الوصول إلى الحكم بقوّة السيف بعد أن افترقت الأمّة الإسلاميّة في توجّهاتها السياسيّة، كلّ فرقة تريد الحكم لنفسها.

البيعة للإمام عليه السلام وموقفه منها

سادت الفوضى أرجاء المدينة بعد مقتل عثمان، فاتّجهت الأنظار والآراء إلى الإمام عليّ عليه السلام لينقذ الأمّة من محنتها وتخبّطها، وطالبوه بتولّي الحكم ولكنّه أبى عليهم ذلك، لا لأنّه لم يأنس من نفسه

(١) راجع: تاريخ اليعقوبي، م.س: ٣/٢٠٦.

(٢) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٦/١٥٤.

القـوّة على ولاية الحكـم وتحمّل تبعاته، بل لأنّه كان يدرك أنّ المدّ الثـوريّ الّذي انتهى بالأمور إلى ما انتهـت إليه بالنسبـة إلى عثمان يقتضي عملاً ثوريّـاً إصلاحيّاً يتناول دعائـم المجتمع الإسلاميّ من النواحي الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة قد لا يتحمّل أعباءه كثير من الناس.

لذلـك امتنع عن الاستجابة الفوريّـة لضغط الجماهير والصحابة عليه وقبـول بيعتهم له بالخلافة، فقـد أراد أن يـرى مدى استعدادهم لتحمّل أسلوب الثورة في العمـل لإزالة الانحراف الّذي حصل في العهـود السابقة، لئلّا يروا فيما بعد أنّـه استغفلهم، واستغلّ اندفاعهم الثوريّ، حين يكتشفون صعوبة مـا سوف يحملهم عليه، ولهذا أجابهم الإمـام عليه السلام بقوله: «دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمـراً لـه وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول... واعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلـم ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم منّي أميراً»[٣]، لئلّا يروا فيما بعد أنّه استغفلهم، واستغلّ اندفاعهم الثوريّ حين يكتشفون صعوبة ما سوف يحملهم عليه الإمام عليه السلام .

وتكاثـرت جمـوع الناس نحـو الإمـام عليه السلام، وفي ذلك يقول عليه السلام: «فمـا راعنـي إلّا والناس كعرف الضبع، ينثالون عليّ من كلّ جانب، حتّى لقد وطئ الحسنان، وشُقّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم»[٤]. وما كان من الإمام عليه السلام إلّا أن استجاب لإرادة الأمّة.

كانـت بيعة الإمـام عليّ عليه السلام أوّل حركة انتخـاب جماهيرية. ولم يحظَ أحد مـن الخلفاء بمثل هذه البيعـة. وبلـغ سرور الناس ببيعتهم أقصـاه، فقد أطلّت عليهم حكومة الحـقّ والعدل، وتقلّد الخلافة صاحبهـا الشرعيّ ناصر المستضعفين والمظلومين. ويصف عليه السلام فرحة الناس بقبوله الخلافة: «وبلغ سرور الناس ببيعتهم إيّاي أن ابتهج بها الصغير، وهَدَج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحَسَرَتْ إليها الكِعاب»[٥].

---

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٩٢.

(٤) م.ن، الخطبة: ٣ (المعروفة بالشقشقية).

(٥) ١٦- م.ن: ٢/٢٢٣.

الإصلاحات في عهد الإمام عليه السلام:

كان على الإمام عليه السلام أن يقوم بعمليّة الإصلاح الشامل في أقصر وقت رغم وجود الصراعات الداخليّة، وذلك في المجالات التالية:

١ و٢. الإصلاح الاجتماعيّ والاقتصاديّ

بعد نشوء المجتمع الطبقيّ في عهود الخلفاء السابقين، كان على الإمام عليه السلام أن يقوم بهدم هذا الكيان الطبقيّ، وذلك عبر ما يلي:

أ. المساواة في العطاء بين المسلمين جميعاً: وكان شعاره في ذلك: «فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يُقسم بينكم بالسويّة، لا فضل لأحد على أحد...»[١].

ب. العدالة في العطاء: من بيت المال، حيث كانت الأموال الطائلة عند طبقة محيطة بالخليفة، فقال عليه السلام: «ألا إنّ كلّ قطيعة أقطعها عثمان، وكلّ مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإنّ الحقّ لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تُزوّج به النساء، ومُلك به الإماء، وفُرِّق في البلدان، لرددتُه»[٢].

جـ. المساواة أمام القانون: فحكم عليه السلام بالحقّ والعدل، وسلك أوضح سُبل الحقّ مُظهراً عدل الشريعة الإلهيّة، وقدرة الإسلام على إقامة دولةٍ تنعم بالحريّة والأمان والعدل.

٣. الإصلاح الإداريّ

قام عليه السلام بإعفاء الولاة الّذين كان قد عيّنهم عثمان بغير وجه حقّ من مناصبهم، ونصب ولاة كانوا جديرين بهذه الأمّة، فأرسل عثمان بن حنيف بدلاً من عبد الله بن عامر إلى البصرة، وعلى الكوفة أرسل عمارة بن شهاب بدلاً عن أبي موسى الأشعريّ، وعلى اليمن عبيد الله بن العباس بدلاً عن يعلى بن منبّه، وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة بدلاً عن عبد الله بن سعد، وعلى الشام سهل بن حنيف بدلاً عن معاوية، ورفض اقتراح إبقاء معاوية على الشام حتّى يستقرّ حكمه عليه السلام ثمّ تنحيته فيما بعد. وكان كلّ هذا لسوء سيرة الولاة السابقين وفسادهم الإداريّ.

(١) بحار الأنوار، م.س: ١٧/٣٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٥.

٤ و ٥ . الإصلاح الدينيّ والثقافيّ

اعتـبر الإمام أنّ من أوّليّات مهامّه صيانـة الشريعة من الزيغ والانحراف بها عن مسارها الصحيح، فاهتـمّ اهتمامـاً بليغاً بالقـرآن الكريم وتفسـيره وقرّائـه، ودعا إلى روايـة السنّة النبويّـة وتدوينها ومدارستها، وربّى ثلّة صالحة من المؤمنين.

خلاصة الدّرس

- عارضـ جمع من الصحابة ومـن بينهم الإمام عليّ عليه السلام سياسة عثمان وكانت معارضته عليه السلام إيجابيّة هدفها تقديم النصح والتخفيف من الآثار السّيئة.
- أسفـر مقتل عثمـان عن نتائج سيّئة ظهرت آثارها في الأمّة الإسلاميّـة من بعده، وامتدّت لتشكّل خطراً جديداً يحيق بدولة الإمام عليّ عليه السلام .
- كانـت بيعة المسلمين للإمـام عليه السلام نموذجاً للبيعة الجماهيرية الفريدة الّتي لم تتحقّق لأيّ واحد من الخلفاء السابقين.
- إنّ ربع قرن من العزلة السياسيّة تمخّض عن انقلاب جملة من المقاييس عند عامّة المسلمين تجاه الإمـام عليه السلام بالإضافة إلى تجذّر جملة من الانحرافات بين أبناء المجتمع الإسلاميّ. واستدعت ظروف الإمام إصلاحاً شاملاً في المجال الإداريّ والاقتصاديّ والدينيّ. واستطاع الإمام عليه السلام أن يشـقّ طريقه باتّجاه المجتمع الإسلاميّ الأمثل بالرغم من وجود عقبات كبيرة في طريق الإصلاح الشامل.

٥

الدرس الخامس

عقبات في طريق دولة الإمام عليه السلام ١

الدرس الخامس

عقبات في طريق دولة الإمام عليه السلام ١

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى أبرز العقبات الّتي واجهها الإمام عليه السلام أيّام حكمه.

٢. أن يتعرّف إلى شخصيّة أمير المؤمنين عليه السلام كحاكم.

٣. أن يستذكر ملامح وآثار الانحراف عن السنّة النبويّة.

البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام، وموقف الرافضين

كانت بيعة الناس لأمير المؤمنين عليه السلام بمنزلة صاعقة حلّت على بني أميّة وكلّ من يكنّ العداء للإسلام، وكان كلٌّ من طلحة والزبير يرى نفسه قريناً للإمام عليه السلام. وكان لعائشة المقام المرموق لدى الخلفاء السابقين حيث كانت تتحدّث كما تشاء. وكان معاوية يتصرّف في الشام تصرّف الحاكم المطلق الطامع في السيادة على الأمّة الإسلاميّة وتولّي أمورها بصورة تامّة. فكانت قرارات الإمام عليه السلام وتخطيطه للإصلاح الشامل ضربة قاصمة لكلّ هؤلاء، وتضرّرت مجموعات كانت تستغلّ مناصبها للحصول على الثروة الطائلة في عهد عثمان. ولهذا كان وجود الإمام عليه السلام في قمّة السلطة يُعدّ تهديداً صارخاً لمصالح الكثير من أولئك القوم.

استغلال حادثة مقتل عثمان في مواجهة أمير المؤمنين عليه السلام

من هنا اجتمع بعضٌ على إثارة الفتن للحيلولة دون استقرار الحكم الجديد. وفي الوقت الّذي كانوا يحرّضون فيه الناس على الخليفة الثالث، والمطالبة بقتله - وكانت الغاية من ذلك أن يفوز طلحة وأمثاله بالخلافة -، كانت المفاجأة الكبرى بمبايعة الناس للإمام عليّ عليه السلام بالخلافة، فما كان منهم إلّا أن أعلنوا الحرب على وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخداع المسلمين ببعض الشعارات الزائفة للوقوف إلى جانبهم في حربهم ضدّ الإمام عليه السلام.

وكان لمعاوية بن أبي سفيان الدور الأكبر في تأجيج نار الفتنة المشتعلة بسبب مقتل الخليفة الثالث من خلال مراسلة المتضرّرين من وصول الإمام عليّ عليه السلام إلى الحكم، وكان من أولئك الّذين راسلهم

عبد الله بن الزبير مع البيعة له[1] .

اجتمع في مكّة الخارجون على بيعة الإمام عليه السلام، كالزبير، وطلحة، ومروان بن الحكم، وتعاهدوا على أن يتّخذوا من دم عثمان شعاراً لتعبئة الناس ضدّ الإمام عليه السلام. وأشاعوا أن الإمام عليه السلام هو المسؤول عن إراقة دم عثمان، وخرجوا جميعاً إلى البصرة.

فتنة الجمل والناكثين

حاول الإمام عليّ عليه السلام أن يجنّب الأمّة المصائب وسفك الدماء، وراسل رؤوس الفتنة، فلم يلقَ تجاوباً، وبقي عليه السلام يأمل حتّى آخر لحظة قبل نشوب القتال في أن يرتدع الناكثون عن غيّهم، فلم يأذن بالقتال حتّى شرعوا هم بذلك، فالتحم الجيشان في قتال رهيب، ووصل أصحابه إلى الجمل فعقروه، وانتهت فصول المعركة بانتصار جيش الإمام عليه السلام على مخالفيه.

وبعد هذه المعركة تحرّك الإمام نحو الكوفة ليتّخذها مقرّاً له نظراً لكونها تشكّل ثكنة عسكريّة، حيث كان يقال لها كوفة الجند، ولتوسّع رقعة العالم الإسلاميّ ولقربها من الشام حيث يتحصّن معاوية، ولوقوف أهلها معه عليه السلام .

معاوية وحرب صفّين

شرع معاوية بمعاونة عمرو بن العاص، بعد استقرار الإمام عليه السلام في الكوفة، يخطّط لمواجهة الإمام عليه السلام والوضع القائم، وقامت خطّته الخبيثة على التشبّث بقميص عثمان كشعار لتحريك مشاعر وعقول الجماهير غير الواعية، وعبّأ أهل الشام للحرب. ورغم أنّ الإمام عليه السلام أكثر من مراسلة معاوية ومحاورته لإدخاله في بيعته، لكنّ ردّ معاوية كان هو الحرب والسعي للقضاء على الإمام عليه السلام بكلّ وسيلة.

جرت مناوشات متعدِّدة بين جيشي الإمام عليه السلام ومعاوية ولم تستعر الحرب، وحصلت هدنة بينهما، حتّى التحما في معركة رهيبة في صفّين[2] قُتِل فيها عمّار بن ياسر، وأربعة وعشرون صحابيّاً بدريّاً واستمرّ القتال أيّاماً عديدة قُتل فيها عدد كبير من الجانبين.

---

(١) م.ن: ١/٢٣١.

(٢) هي موضع بقرب الرقّة على شاطئ الفرات من الجانب الغربيّ.. وكانت مدّة المقام بصفّين ١١٠ أيّام، وكانت الوقائع ٩٠ واقعة، معجم البلدان، الحمويّ: ٣/٤١٤.

خدعة رفع المصاحف والتحكيم

أظهـر أصحـاب الإمام عليه السلام صبرهـم وتفانيهم من أجل انتصـار الحقّ، وبـدت الهزيمة على أهل الشـام، إلى أن أشار عمرو بن العاص على معاويـة برفع المصاحف على الرماح. وكانت هذه الدعوى المضلّلـة سببـاً لاختلاف جيش الإمام عليه السلام، فهـاج الناس وكثر اللغط بينهـم. وحاول الإمام عليه السلام إفهام الناس أنّ هذا الأمر خديعة وهم لا يسمعون ولا يعون حقيقة الأمر. وانطلت الخديعة على قسم كبير من جيش الإمام عليه السلام وتمرّدوا عليه ولم يعد باستطاعته أن يفعل شيئاً. وقد وصف عليه السلام حاله معهـم بقولـه: «لقد كنت أمسِ أميراً فأصبحت اليوم مأمـوراً، وكنت بالأمس ناهيـاً فأصبحت اليوم منهيّاً»[١].

وانتهـت المعركة بخدعـة التحكيم عندما أصـرّ أصحاب الإمـام المخدوعين على ترشيـح أبي موسى الأشعريّ، والإمام عليه السلام يصرّ على ترشيح عبد الله بن عبّاس أو مالك الأشتر.

وأفـرزت معركـة صفّين ظهور الخوارج الّذين كانت صفاتهم التحجّـر والتمسّك بالظواهر والتعصّب والخشونـة وعـدم التمييز بين الحقّ والباطل، وسرعة التأثّـر بالشائعات. وصدَقَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وصفهم عندما قال عنهم: «يخرج فيكم قوم تحقّرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكـم مـع عملهـم، ويقرؤون القـرآن لا يجـاوز حناجرهم، يمرقون مـن الدِّين مـروق السهم من الرمية»[٢].

المواجهة مع الخوارج

تجمّعـت قوّات المارقين عـن الدِّين قرب النهروان. وحـاول الإمام عليه السلام مـراراً ردعهم عن فكرتهم وسعيهـم للحرب، فلم يجد فيهـم إلّا الفساد والجهل والإصرار، فعبّأ جيشـه ونصحهم كما هو شأنّه في كلّ معركـة، وبعث إليهم رُسُله، وبيّن أنّه كره التحكيـم وعارضه، وشرح سبب معارضته بوضوح... ولم يرعـوِ المارقـون لقوله عليه السلام وطالبوه بتكفير ما اعتبروه ذنبـاً وإعلان توبته. وهجم الخوارج وهم يتصايحـون: "إن الحكـم إلّا لله... الـرواح الرواح إلى الجنّة". ولم تمضِ إلّا ساعة حتّى أُبيدوا عن

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ٣/٣١٧.

(٢) صحيح البخاري أبو عبد الله محمّد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي:٦/١١٥، دار الفكر، ط ١، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م، مصوّر عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول.

أجمعهم، ولم ينجُ منهم إلّا أقلّ من عشرة، ولم يُقتل من أصحاب الإمام عليه السلام إلّا أقلّ من عشرة أشخاص[٣]. وكان الإمام عليه السلام قد أخبر أصحابه مسبقاً بهذه النتيجة.

فتح مصر

بعد مقتل عثمان ولّى الإمام عليه السلام قيس بن سعد بن عبادة ولاية مصر. ثمّ كلّف محمّد بن أبي بكر ليقوم مقام سعد. وبقيت مصر الجناح الآخر الّذي يُقلق معاوية فتحرّك مع عمرو بن العاص للسيطرة عليها، فزحف نحوها واحتلّها، واستشهد محمّد بن أبي بكر، فكلّف الإمام عليه السلام مالك الأشتر بالذهاب إلى ولاية مصر وكتب إليه العهد المشهور وهو يتضمّن نظاماً إدارياً وسياسيّاً جامعاً. لكنّ معاوية بمكره ودهائه تمكّن من دسّ السّم إلى مالك والقضاء عليه قبل أن يباشر الإدارة في مصر[٤].

خلاصة الدرس

- حاول الإمام عليه السلام القضاء على فتنة أهل الجمل بالحكمة والنصيحة، ولكنّ نصائحه لم تؤثّر فيهم.
- عامل الإمام عليه السلام أصحاب الفتنة بعد خسارتهم المعركة معاملة حسنة وجهّز عائشة وسرّحها بما يحفظ كرامتها.
- استطاعت قوات الإمام عليه السلام في صفّين أن تعصف بقوّات معاوية حتّى بان الوهن فيهم، وهنا أشار عمرو بن العاص بحيلة رفع المصاحف لخديعة البسطاء من جيش الإمام عليه السلام.
- لعبت سياسة المكر والخداع الّتي مارس عمرو بن العاص أدوارها الشائنة في محاربة معاوية للإمام عليه السلام، فتمخّضت عن ذلك صرف الأمّة عن مسار الرسالة الإسلاميّة الّذي كان يمثّله الإمام عليه السلام.

---

(٣) تاريخ الطبري، م.س: ٦٩٩/٥.

(٤) م.ن: ٥/٦.

٦

الدرس السادس

عقبات في طريق دولة الإمام عليه السلام ٢

الدرس السادس

عقبات في طريق دولة الإمام عليه السلام ٢

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى أبرز العقبات الّتي واجهها الإمام عليه السلام أيّام حكمه.

٢. أن يتعرّف إلى شخصيّة أمير المؤمنين عليه السلام كحاكم.

٣. أن يستذكر ملامح وآثار الانحراف عن السنّة النبويّة.

خصائص حاكميّة الإمام عليّ عليه السلام

ليس عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالشخصيّة التاريخية فحسب إنّما هو أمير المؤمنين، أي إنّه بالنسبة لنا الأسوة والقدوة والنموذج، نموذج للحاكم الّذي ينبغي للحكّام والقادة الاقتداء بسلوكه ومنهجه.
وإذا أردنا أن نقف على المحطّات البارزة واللامعة في حياة مولى المتّقين ونتعرّف إلى شخصيّته وحاكميّته وحكومته فما علينا إلّا أن ندرس نقطتين أساسيّتين وحساستين، لأنّ الإمام عليه السلام بعنوان أنّه الحاكم والخليفة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يدخل في صلب هاتين النقطتين.
وهذا مع عدم إغفال النواحي الأخرى في شخصيّته المعنويّة والعرفانيّة، تلك الشخصيّة الّتي كانت مرتبطة بالفيض واللطف الدائم لله سبحانه وتعالى.
نعم، حديثنا هو عن الإمام عليّ عليه السلام كحاكم إسلاميّ حكم الأمّة الإسلاميّة لفترة من الزمن.

الأولى: الذوبان في الإسلام

إنّ البارز في حياة أمير المؤمنين عليه السلام كحاكم هو التزامه وتعبّده الكامل بما جاء به الإسلام وما ورد في شريعته، فهو الّذي تربّى في كنف الإسلام وتحمّل الأذى والمصاعب في سبيله، وحضر في كلّ المواجهات والتحدّيات، وشارك في كلّ الحروب والغزوات الّتي جرت في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باستثناء حرب واحدة لم يشارك فيها بناءً على طلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي ذلك الوقت الّذي غُصبت منه الخلافة، وكان يستطيع إن أراد أن يواجه المغتصبين لحقّه وأن يقوم بدعوة الناس وتحريضهم، لم يقم عليه السلام بذلك وضحّى لمصلحة الإسلام، وكذلك فعل أيضاً بعد

وفـاة الخليفة الثاني، ورفض تسلّم منصب الخلافة وفقاً للشروط الّتي أرادوا فرضها عليه والمخالفة لكتـاب الله وسنّـة النبيّ صلى الله عليه وآله، وأدّى هـذا الرفضـ إلى أن يتأخّر بتسلّم منصـب الخلافة ١٢ عاماً أخـرى. وطـوال فترة حياته الّتي سبقـت تسلّمه الخلافة كان دائماً يجاهد ويتحـرّك في سبيل خدمة الإسـلام والشريعـة. لذا فمن الطبيعيّ أن يعمل على تطبيق الأحـكام الإسلاميّة حين تسلّمه للخلافة وعلى تحكيم الثوابت الإسلاميّة.

الثانية: عدم المهادنة على حساب الإسلام

إنّ الإمـام عليّاً عليه السلام كشخصيّة حاكمة لم يكن مستعـدّاً على الإطلاق أن يهادن ويصالح الأشخاص الّذيـن لم يكونـوا يتحرّكون في ضمن خطّـه ومسيرته، فهو تلميذ النبيّ صلى الله عليه وآله الّـذي كانت حياته كلّها شاهدة على رفض المهادنة والأهواء الّتي تعارض الحقّ والعدل. ولو كان أمير المؤمنين عليه السلام مستعدّاً أن يهـادن لـكان استطاع أن يحـدّ من نفوذ القادة والشخصيّـات المعادية له، ولـو كان أيضاً مستعدّاً للتخفيـف من مواجهته لأعـداء الإسلام والحكومـة الإسلاميّة فمن المؤكّد لم تكـن لتواجهه كلّ هذه المشاكل والمصاعب.

وهنـا كان امتياز علـيّ عليه السلام الحاكم عن غيره من الحكّام، فأولئك كانـوا مستعدّين أن يتحالفوا مع أيّ طـرف ضدّ عدوّهم، فـنرى معاوية وعمرو بن العاص المتنافسـين والمتخالفين فيما بينهما، يقفان جنباً إلى جنب لمواجهة الإمام عليّ عليه السلام، وكذلك إذا نظرنا إلى طلحة والزبير من جهة وإلى معاوية من جهةٍ أخرى، فلقد كانوا متعادين لكنّهم كانوا مستعدّين أن يتحدّوا ويقفوا جنباً إلى جنب لمحاربته عليه السلام بينما رفض الإمام عليه السلام أن يتحالف مع طلحة والزبير ضدّ معاوية.

انهيار الأمّة وتفكّكها بسبب المتربصين بالإسلام

بـدأت بوضـوح ملموس ملامح وآثار الانحـراف الّذي حصل يوم السقيفة في نهايـة أيّام حكم الإمام عليه السلام، حيـث بـدأ معاوية ومن اقتفى أثره في محاربة الإسلام من داخل الإسلام بتفكيك ما بقي من أواصر تماسك المجتمع الإسلاميّ، وتخريبه وبناء مجتمع ينسجم وفق رغباتهم وأهوائهم.

حال الأمة بعد المعارك:

ويمكننا أن نلحظ حال الأمّة بعد خوض الإمام عليه السلام ثلاث معارك هامّة لاجتثاث الفساد، فيما يلي:

١. تضعضع الجيش بفقدان خيار الصحابة

مُنـي الإمـام عليه السلام والأمّـة بفقد خيار الصحابـة الواعين الّذيـن كان يمكن من خلالهـم بناء الأمّة الصالحـة وفـق نهج القـرآن والسنّة بإشـراف الإمام عليه السلام. وقد بلـغ الحزن في نفس الإمام مبلغاً عظيمـاً نجده في نعيه لهـم بقوله: «ما ضرّ إخواننا الّذين سفكت دماؤهـم بصفّين أن لا يكونوا اليوم أحيـاءً يسيغون الغصص ويشربون الرنق، قد والله لقوا الله فوفّاهم أجورهم، وأحلّهم دار الأمن بعد خوفهم... أين إخواني الّذين ركبوا الطريق ومضوا على الحقّ؟ أين عمّار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الّذين تعاقدوا على المنيّة...»[1] .

٢. تمرد الجيش وشراء معاوية للضمائر الضعيفة

تمرّد الجيش وتفكّكه وظهور الضعف والسأم من الحرب، لكثرة من قُتل من أهل العراق الّذين يشكّلون العمود الفقريّ لفِرق جيش الإمام عليه السلام. ولم يتمكّن بما يملك من قدرة خطابيّة رائعة وحجّة بالغة أن يبعـث الاندفاع والحزم في قاعدته الشعبيـة لمواصلة الحرب. وممّا زاد من تفتيت الجيش عدم توقّف معاويـة عن مخاطبة زعماء القبائـل والعناصر الّتي يبدو منها حبّ الدنيا، فمنّاهم بالأموال والهبات والمناصب إذا قاموا بكلّ ما يؤدّي إلى إضعاف قوّة الإمام وجماهيره المؤيّدة.

٣. تعدي معاوية على البلدان الإسلامية

لقد أتاح الظرف الّذي مرّ به الإمام عليه السلام والأمّة الإسلاميّة لمعاوية أن يقوم بشنّ غارات على أطراف البلاد الإسلاميّة، فمارس القتل والسبي والإرهاب، فبدأ بالهجوم على أطراف العراق فأرسل النعمان بـن بشير الأنصاريّ للإغارة علـى منطقة "عين التمر"، ووجّه سفيان بن عوف للإغارة على منطقة "هيت"، ثمّ على "الأنبار والمدائن"، وإلى "واقصة" وجّه معاوية الضحّاك بن قيس الفهريّ... وفي كلّ مرّة كان يحاول الإمام عليه السلام دعوة الجماهير لمقاومة غارات معاوية فلم يلقَ الاستجابة السريعة. وأدرك معاوية ضعف قوّة حكومة الإمام عليه السلام وتزايد قوّته[2].

وبعـث معاوية بسر بن أرطـأة للإغارة على الحجاز واليمن، فعاث في الأرض فساداً وقتلاً للأبرياء. وبلغ الأسى والأسف في نفس الإمام عليه السلام مبلغاً عظيماً ممّا يفعل المجرمون ومن تخاذل الناس عنه،

(١) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٠/٩٩.

(٢) تاريخ الطبري، م.س: ٤/١٠٢ و١٠٣.

فـكان يصرّح بضجره من تخاذلهم وتقاعسهم، وقال مرّة: «اللّهــم إنّي قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شرّاً منّي»[٣] .

استنهاض الإمام للأمة وغدر معاوية بالإمام عليه السلام

وقـد أنذر الإمام عليه السلام الأمّة الإسلاميّة بمستقبـل مظلم وآلام كثيرة تحلّ بها، نتيجة لما آلت إليه من تقاعس وتخاذل عن نصرة الحقّ، فقـال: «أما إنّكم ستلقون بعدي ذلّاً شامـلاً، وسيفاً قاطعاً، وأثرةً يتّخذهـا الظالمون فيكـم سنّة، فيفرّق جماعتكم، ويُبكي عيونكم، ويُدخـل الفقر بيوتكم، وتتمنّون عن قليل أنّكم رأيتموني فنصرتموني، فستعلمون حقّ ما أقول لكم»[٤].

لكنّ معاوية تمكّن من نشر الفساد والرعب في أطراف الدولة الإسلاميّة، وحاول الإمام عليه السلام في آخر لحظـات حياتـه أن يقوم بحملة واسعة يستنهض فيها الأمّـة الإسلاميّة، فخاطب الجماهير وهدّدهم بشـكل حازم، فاستجاب له الناس وخرج وجهـاء الأمّة الإسلاميّة للاستعداد لملاقاة معاوية والقضاء علـى الفساد، وخـرج النـاس إلى معسكراتهم في منطقـة "النخيلة" خارج الكوفـة، وتحرّكت بعض قطعـات الجيـش تسبق البقيّة مع الإمام عليه السلام الّذي بقي ينتظر انقضاء شهر رمضان، لكنّ يد الغدر والخيانة سبقتهم إلى إطفاء نور الهدى ليبقى الظلام يلفّ انحرافهم وفسادهم، وامتدّت يد الشيطان لتصافـح ابـن ملجم في عتمة الليل، وفي ختلة وغدرة هوت بالسيف علـى هامة طالما استدبرت الدنيا واستقبلت بيت الله وهي ساجدة، وغادرتها منها في تلك الحال، واستُشهد أمير المؤمنين عليه السلام .

خلاصة الدرس

- تميّـزت حاكمية الإمام عليّ عليه السلام بالالتزام والتعبّد الكامل بالإسلام وما ورد في شريعته الغرّاء، وعدم المهادنة لأهل الباطل.
- بـدأت تظهر ملامح وآثار انهيار الأمّة وتفكّكها من خلال فقد الأمّة لخِيار الصحابة، والتمرّد في الجيش العلويّ وتفكّكه وظهور الضعف، وشنّ معاوية الغارات على أطراف البلاد الإسلاميّة.

---

(٣) نهج البلاغة، م.س: ١/٦٦.

(٤) م.ن، الخطبة: ٢٥.

٧

الدرس السابع

الزهراء عليها السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ١

الدرس السابع

الزهراء عليها السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ١

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى موقف الزهراء عليها السلام من اغتصاب الخلافة.

٢. أن يتبيّن الأمور المتعلّقة بفدك.

٣. أن يستذكر مظاهر المعارضة الفاطميّة.

تمهيد

لم تلبث سيّدة نساء العالمين عليها السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا قليلاً، لكنّ هذه الفترة كانت ملئى بالحوادث الّتي غيّرت مجرى التاريخ، من تخاذل الأمّة عن وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلى هجر سنّة الرسول ووصاياه صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ثمّ التخلّف عن العترة الطاهرة الّتي أوصى صلى الله عليه وآله وسلم بالتمسّك بها مع القرآن، وصار بيت فاطمة عليها السلام بيتاً للأحزان بعد فِراق أبيها، وقِلى صحابته لها ولبعلها عليهما السلام. وللزهراء عليها السلام مواقف وشواهد في مواجهة ما حصل. سنتعرّض لها خلال الفقرات التالية.

موقف الزهراء عليها السلام من الخلافة

وقفت السيّدة الزهراء عليها السلام إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام لا بدافع العاطفة الزوجيّة، وإنّما المسؤوليّة الشرعيّة هي الّتي كانت تُملي عليها هذا الموقف. وكانت تعبّر عن رفضها لاغتصاب الخلافة بخروجها مع الإمام عليه السلام إلى مجالس الأنصار لتسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أنّ زوجك وابن عمّك سبق إلينا قبل أبي بكر، ما عدلنا به، فيقول الإمام عليه السلام: «أفكنتُ أدع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيته لم أدفنه، وأخرج أُنازع الناس سلطانه؟».

وكانت عليها السلام تقول: «ما صنع أبو الحسن إلّا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم»[1].

واستمرّت الزهراء عليها السلام تدعو الأنصار إلى نُصرة الإمام عليّ عليه السلام دون أن تجد معيناً على ذلك.

وبقي بيت فاطمة عليها السلام مقرّاً للموالين لعليّ عليه السلام يخطّطون فيه لإعادة الخلافة إليه. لكنّ الحزب

(١) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٣/٦.

الحاكم كان مصمّماً على ضرب المعارضة أنّى كانت ومهما كلّف الأمر. ومن هنا تجرّأوا على اقتحام بيت الزهراء عليها السلام والإمام عليّ عليه السلام وأحرقوا الباب بالنار متحدّين ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكلّ قوّة، وأكرهوا الإمام عليّ ومن معه على البيعة، وهدّدوهم بالقتل إن لم يبايعوا.

السلطة ومصادرة فدك

قــرّرت السلطة الحاكمة أن تُصادر فدكاً لتشلّ كلّ مصــادر القوّة المادّية الّتي قد يستفيد منها الإمام عليه السلام ضــدّ السلطــة لإحباط الانقلاب. ولهــذا سارع الخليفة لإصدار قــرار بتأميم فدك وسلبها من فاطمة عليها السلام، وذلك بعد أن استوسق له الأمر في كرسي الحكم، فبعث إلى فدك من يُخرج وكيل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولأجل استيعاب البحث حول فدك لا بدّ من التحدّث عن الأمور التالية:

الأوّل: ما هي فدك؟

ذكــر اللغويّــون أقوالهم في فدك، فقــال "صاحب القاموس": فدك قريــة في خيبر، وفي "المصباح": فَدَك – بفتحتين – بلدة بينها وبين مدينة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يومان، وهي ممّا أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وفي "معجــم البلــدان": فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومــان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في سنة سبع صلحاً، وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لمّا نزل خيبر وفتح حصونها ولم يبق إلّا ثلاثة منهــا واشتــدّ بهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسألونــه أن ينزلهم على الجلاء، وفعل، وبلغ ذلــك أهــل فدك فأرسلــوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصالحهــم على النصف من ثمارهــم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك، فهو ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2].

قــال الله تعــالى: ﴿**وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ❖ مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾[3]. والمعنى: أفاء الله أي ردّ الله مــا كان للمشركــين على رسوله بتمليك الله إياه منهــم، أي من اليهود الّذين أجلاهم. ﴿**مَا أَوْجَفْتُمْ**

(٢) راجع: فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد، محمّد كاظم القزويني: ٢٢٢، طباعة المؤلف.

(٣) سورة الحشر، الآيتان: ٦ ـ ٧.

عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أوجف خيله أي أزعجه في السير، والركاب هنا: الإبل، والمعنى ما استوليتم عليه من تلك الأموال بخيولكم أي ما ركبتم خيولكم وإبلكم لأجل الاستيلاء عليه **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾** أي يمكّن الله رسله من عدوّهم من غير قتال، بأن يقذف الرعب في قلوبهم، فجعل الله أموال بني النضير لرسوله خالصة يفعل بها ما يشاء، وليست من قبيل الغنائم الّتي توزَّع على المقاتلين. **﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾** أي من أموال كفّار أهل القرى، **﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾** أي جعل الله تلك الأموال ملكاً لرسوله **﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾** يعني قرابة النبيّ **﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾** من القربى.

وبهذا التفسير يتبيّن أنّ فدكَ صارت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي مجمع البيان عن ابن عباس أنّ الآية نزلت في أموال كفّار أهل القرى وهم قريظة وبنو النضير وهما بالمدينة، وفدك وهي من المدينة على ثلاثة أميال، وخيبر وقرى عرينة وينبُع جعلها الله لرسوله يحكم فيها ما أراد، وأخبر أنّها كلّها له، فقال أناس: فهلّا قسّمها فنزلت الآية[1].

<u>الثاني:</u> هل دفع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فدكَ إلى ابنته الزهراء نحلة وعطيّة في حياته أم لا؟

قال تعالى: **﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[2].

نلاحظ أنّ هذه الآية خطاب من الله عزَّ وجلَّ إلى نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يأمره أن يؤتي ذا القربى حقّه، فمن هو ذو القربى؟ وما هو حقّه؟

الجواب: قد اتّفق المفسّرون أنّ ذا القربى هو ابنته فاطمة عليها السلام.

جاء في الدرّ المنثور للسيوطيّ عن أبي سعيد الخدريّ أنّه قال لمّا نزلت الآية: **﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة الزهراء وأعطاها فدكَ[3]. كما ذكر ابن حجر العسقلانيّ في الصواعق المحرقة مثل

---

(١) مجمع البيان، الفضل بن الحسن الطبرسيّ، راجع تفسير سورة الحشر، الآية: ٧، انتشارات ناصر خسرو، طهران، عن طبعة بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٨.

(٣) الدرّ المنثور، جلال الدِّين السيوطي: ٤/١٧٧، دار المعرفة، بيروت.

هذا المعنى والمضمون[٤].

الثالث: هل يورِّث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أم لا؟

يُستفاد من الروايات أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أعطى فاطمة فدكَ بعنوان النحلة والعطيّة بأمر الله تعالى حيث أمره بقوله: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ**﴾.

وحينما احتجّ أبو بكر بحديث نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنّ الأنبياء لا يورّثون"، قالت عليها السلام: "إنّ فَدَكَ وهبها لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم"، وشهد عليّ عليه السلام وأمّ أيمن بذلك، وشهد عمر وعبد الرحمن بن عوف أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقسمها[٥].

ولّما بلغها عليها السلام قرار أبي بكر قدِمت ومعها بعض النساء فدخلت على أبي بكر وخطبت خطبة بليغة وفنّدت مزاعمهم بأن النبيّ لا يورِّث، وقالت: «... ثمّ أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي.. أبى الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك، ولا أرث أبي؟! لقد جئت شيئاً فريّاً...»[٦]

الرابع: هل كانت السيّدة الزهراء عليها السلام تتصرّف في فدك في حياة أبيها الرسول أم لا؟

يُستفاد من تصريحات المؤرّخين والمحدِّثين أنّ السيّدة الزهراء كانت تتصرّف في فدك، وأنّ فدك كانت في يدها، ويدلّ على ذلك تصريح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الكتاب الّذي أرسله إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة فإنّه ذكر فيه: «... بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونِعمَ الحَكَم الله...»[٧].

أدلّة ملكيّة الزهراء عليها السلام لفدك

إنّ امتلاك السيّدة الزهراء عليها السلام لفدك وفقاً لما تقدّم يُصبح أمراً يقينيّاً، ففضلاً عن عصمتها عليها وأنّها لا تدّعي إلّا حقّاً، ولكن من باب الإلزام نضيف ثلاثة وجوه تُثبت ذلك:

---

(٤) الصواعق المحرقة في الرّد على أهل البدع والزندقة، ابن حجر العسقلاني: ٢٥، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٥م.

(٥) شرح نهج البلاغة، م.س: ٢١٦/١٦.

(٦) م.ن: ٢١٢/١٦.

(٧) نهج البلاغة، رسالة الإمام عليّ عليه السلام إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف.

الأوّل: أنّها كانت ذات يد -أي كانت فدك تحت تصرفها-، فلا يجوز انتزاع فدك من يدها إلّا بالدليل والبيّنة، كما عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "البيّنة على المدّعِي، واليمين على المدّعَى عليه"(1). وما كان على السيّدة الزهراء عليها السلام أن تقيم البيّنة لأنّها ذات يد.

الثاني: أنّها كانت تملك فدك بالنحلة والعطيّة والهبة من أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي ليست إرثاً بعد وفاته حتّى يُقال لها إنّ الأنبياء لا تورّث.

الثالث: لو سلّمنا أنّها ليست نحلة فهي على الأقل إرثٌ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ومن المعلوم في الإسلام أنّ البنت ترث أباها، فهي كانت تستحقّ فدك بالإرث من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنّ القوم خالفوا هذه الوجوه الثلاثة، حيث طالبوها بالبيّنة وطالبوها بالشهود على النحلة، وأنكروا وراثة الأنبياء.

وبإمكان السيّدة فاطمة عليها السلام أن تطالب بحقّها بكلّ وجه من هذه الوجوه.

خلاصة الدّرس

- وقفت الزهراء عليها السلام إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام من منطلق المسؤولية الشرعيّة وعبّرت عن ذلك من خلال عدّة مواقف منها: خروجها مع الإمام عليه السلام إلى المسلمين وطلبها النصرة منهم.
- قرّرت السلطة الحاكمة مصادرة فدك لتشلّ كلّ المصادر المالية الّتي قد يستفيد منها الإمام عليّ عليه السلام ضدّ السلطة لإحباط المؤامرة.
- كلّ الأدلّة تشير إلى أنّ فدكَ كانت ملكاً للزهراء عليها إمّا لأنّها هديّة من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو إرث منه صلى الله عليه وآله وسلم لها عليها، وفدك كانت ملكاً خاصاً له صلى الله عليه وآله وسلم يتصرّف فيها كيفما يشاء.

(1) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق:٣/٣٢.تحقيق علي أكبر الغفاري، ط٢، مؤسسة النشر الإسلامي.

٨

الدرس الثامن

الزهراء عليها السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٢

الدرس الثامن

الزهراء عليها السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٢

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى موقف الزهراء عليها السلام من اغتصاب الخلافة.

٢. أن يتبيّن الأمور المتعلّقة بفدك.

٣. أن يستذكر مظاهر المعارضة الفاطميّة.

المعنى الرمزيّ والسياسيّ لفدك

إنّ الحركة التصحيحيّة الّتي قام بها الإمام عليّ عليه السلام والزهراء عليها السلام لإعادة الخلافة الإسلاميّة عن جادة الانحراف اكتسبت ألواناً متعدّدة، وتنوّعت أساليب المطالبة بحقّ خلافة الإمام عليّ عليه السلام، ومنها مطالبة السيّدة الزهراء عليها السلام بفدك.

فليست المسألة مسألة مطالبة بأرض، بل يتجلّى منها مفهوم أوسع من ذلك ينطوي على غرض طموح يبعث إلى الثورة، ويهدف إلى استرداد حقّ مغتصب ومجد عظيم وتصحيح مسيرة أمّة انقلبت على أعقابها. وقد أحسّ الحزب الحاكم بذلك، فتراه قد بذل قصارى جهده في التحدّي والثبات على موقفه.

ولو فحصنا أيّ نصّ من النصوص التاريخيّة المتعلّقة بفدك فلا نجد فيه نزاعاً مادّياً أو اختلافاً حول فدك بمعناها الضيّق وواقعها المحدود، بل هي الثورة على أساس الحكم المنحرف، والصرخة الّتي أرادت لها الزهراء عليها السلام أن تصل إلى كلّ الآفاق؛ لتقتلع بها أساس الظلم الّذي بُني يوم السقيفة.

ويكفينا لإثبات ذلك أن نلقي نظرةً فاحصةً على خطبة الزهراء عليها السلام في المسجد أمام الخليفة وبين حشود المهاجرين والأنصار، فإنّها تناولت في أغلب جوانبها امتداح الإمام عليّ عليه السلام والثناء على مواقفه الجهاديّة الخالصة لخدمة الإسلام، وتسجيل الحقّ الشرعيّ لأهل البيت عليهم السلام الّذين وصفتهم بأنّهم الوسيلة إلى الله في خلقه وخاصّته ومحلّ قدسه وحجّته، وورثة أنبيائه في الخلافة والحكم.

وحاولـت عليها السلام أن تنبّه المسلمين إلى غفلتهم وسكوتهم عن الحقّ، وانقلابهم على أعقابهم بعد هداهم، والفتنـة الّتـي سقطوا فيهـا، والدوافع الّتي دفعتهـم إلى ترك كتاب الله ومخالفتـه فيما يحكم به في مسألة الخلافة والإمامة.

فالمسألـة إذن ليسـت مسألـة تقسيم مـيراث أو قبض نحلة بـل هي في نظر الزهـراء عليها السلام قضيّة ولاية وخلافة أميطت عن صاحبها الشرعيّ.

الزهراء عليها السلام والقضاء على نتائج السقيفة

إنّ ما قدّمناه حول المعنى الرمزيّ لمطالبة الزهراء عليها السلام بفدك يكشف لنا بوضوح أنّها عليها أرادت من وراء ذلك توعية الرأي العام، وتنبيه الأمّة لما جرى في السقيفة، وما ترتّب على ذلك من نتائج، والّتي بدأت تظهر معالمها بالتعدّي على حقوق آل البيت عليهم السلام .

وهذا ما استكملته الزهراء عليها السلام في حديثها مع نساء المهاجرين عند زيارتهنّ لها، فقد أوضحت لهنّ أنّ أمر الخلافة انحرف عن مساره الشرعيّ بإقرار أصحاب السقيفة على مسند الحكم، ولو أنّهم وضعوا الأمر حيث أمر الله تعالى ورسوله وأعطوا زمام القيادة للإمام عليه السلام لبلغوا رضى الله وسعادة الدنيا والآخرة.

قالـت عليها السلام: «... ويحهـم أنّى زحزحوهـا عن رواسي الرسالـة، وقواعد النبوّة والدلالـة ومهبط الروح الأمـين، والطبين[1] بأمور الدنيا والدين، ألا: ﴿**ذَلِكَ هُوَ الْخُسْـرَانُ الْمُبِـينُ**﴾، وما الّذي نقموا من أبي الحسن؟ نقموا منه والله نكير سيفه...»[2] .

ولعـلّ الشاهـد أو الدليل على مقاصـد الزهراء عليها السلام هو ردّ فعل السلطة الحاكمـة الّتي التفتت وتنبّهت إلى ذلـك، ولذا كان ردّ الخليفة بعدما انتهت الزهراء عليها السلام من خطبتها أن قام بشنّ هجوم عنيف على الإمـام علـيّ عليه السلام، ووصفه بأنّه ثعالة، وأنّه مربّ لكل فتنة، وأنّ فاطمة ذَنَبه التابع له[3]. ولم يتطرّق في ردّه إلى موضـوع المـيراث أو النحلـة، وما هذا إلّا لأنّـه فهم أنّ احتجاج الزهـراء عليها السلام لم يكن حول

(١) أي الحاذق.

(٢) فدك في التاريخ، م.س: ٦٥.

(٣) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٦/ ٢١٥.

المـيراث أو النحلة، وإنّما كان حرباً سياسيّـة، وتظلّماً لحقّ الإمام عليّ عليه السلام، وإظهاراً لدوره العظيم في الأمّة، والّذي أراد من اغتصب الخلافة إبعاده عنه.

مظاهر المعارضة الفاطميّة

يُمكن تلخيص المعارضة الفاطميّة في عدّة مظاهر:

١. إرسالها من ينازع أبا بكر في مسائل الميراث ويطالب بحقوقها[١].

٢. مواجهتها بنفسها له في اجتماع خاصّ[٢].

٣. خطبتها في المسجد بعد عشرة أيّام من وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[٣].

٤. جوابهـا لأبي بكـر وعمر حينما زاراها بقصد الاعتـذار منها، وإعلانها غضبهـا عليهما، وأنّهما أغضبا الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك[٤].

٥. خطابها الّذي ألقته على نساء المهاجرين والأنصار لمّا اجتمعن عندها[٥].

٦. وصيّتها بأن لا يحضر تجهيزها ودفنها أحد من خصومها[٦]، وكانت هذه الوصيّة الإعلان الأخير من الزهراء عليها السلام عن نقمتها على الخلافة القائمة.

اعلموا أنّي فاطمة

إنّ خطبة الزهراء عليها السلام لهي شعلة حقٍّ يعجز المرء عن وصفها، ويؤمن من خلال دقّة معانيها وقوّة بيانها أنّهـا صـادرة عن سيّـدة طاهرة معصومة قال في حقّهـا الإمام الخمينيّ قدس سـره: "حقيقة المرأة الكاملة... حقيقة الإنسان الكامل.. امرأة لو كانت رجلاً لكان نبيّاً.."[٧].

تقول عليها السلام: «اعلموا أنّي فاطمة وأبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، أقول عَوداً وبدءاً ولا أقول ما أقول غَلَطا، ولا أفعل ما

(١) م. ن: ١٦/٢١٨ـ ٢١٩.

(٢) م. ن: ١٦/٢٣٠.

(٣) م. ن: ١٦/٢١١.

(٤) م. ن: ١٦/ ٢٦٤ – ٢٨١.

(٥) م. ن: ١٦/٢٣٣.

(٦) م. ن: ١٦/٢٨١.

(٧) صحيفة نور: ٧/٢٥٠.

أفعل شططا، ﴿**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[٨] فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم..».

ثـمّ تبيّن عليها عظمــة أمير المؤمنين عليه السلام وتذكّر بمناقبه ومواقفه وبلاءه بين يدَي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتقول: «فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد أن مُنيَ ببُهم الرجال وذؤبان العرب، ومَرَدة أهــل الكتاب ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ**﴾[٩]، أو نجم قــرن للشيطان، أو فغرت فاغرة مــن المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتّى يطــأ جناحها بأخمصه، ويُخمد لهبها بسيفه، مكــدوداً في ذات الله، مجتهــداً في أمــر الله...» أمّــا حالكم أيّهــا الحزب الحاكم فأنتــم «في رفاهيّة مــن العيش وادعون فاكهــون آمنون تتربّصون بنا الدوائــر وتتوكّفون الأخبــار وتنكصون عند النزال وتفرّون من القتال... ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾[١٠]...[١١].

ختامــاً فــإنَّ خطبة الزهراء عليها السلام هي وثيقة سياسيّة تاريخيّة، بحاجة منّا إلى دراسة معمّقة لا يمكن أن تحويهــا هذه الأسطر، إلّا أنّ ما تعرّضنا له منها ومن مواقفها عليها يعتبر إطلالة موجزة ومختصرة وقبس من نور، لا بدّ للطالب أن يستزيد منه ويتعمّق فيه.

خلاصة الدّرس

- لم تكــن مطالبة الزهراء عليها السلام بفدك مسألة مطالبة بأرض بل كانت إشارة منها إلى معنى سياسيّ كبير يرتبط بغصب الخلافة من الإمام عليّ عليه السلام .

(٨) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٩) سورة المائدة، الآية:٦٤.

(١٠) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

(١١) راجع: الاحتجاج، م.س: ١/١٣١-١٤٤.

٩

الدرس التاسع

الإمام عليّ والتمهيد لإمامة الحسن عليهما السلام ١

الدرس التاسع

الإمام عليّ والتمهيد لإمامة الحسن عليهما السلام ١

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى شخصيّة معاوية.

٢. أن يتبيّن أوضاع جيش الإمام الحسن عليه السلام.

٣. أن يستذكر الظروف التي ألجأت الإمام عليه السلام للصلح.

الإمام الحسن في عهد أبيه عليهما السلام

كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوجّه الأنظار إلى إمامة ولده الحسن عليه السلام ومقامه السامي وخصائصه وكفاءته. فقد كان عليه السلام يسأله المسائل المختلفة على مرأى ومسمع الملأ من أصحابه، والحسن عليه السلام يُجيب عنها بأجوبة شافية.

وكان الإمام عليّ عليه السلام يكلِّفه بالمهام الصعبة، ويبعثه لحلّ الأزمات، ويُشركه في المواقف الحرجة. فقد بعثه إلى أهل الكوفة لعزل الأشعريّ، وأمره بإجابة عبد الله بن الزبير في معركة الجمل، وأمره بنقض حكم الحَكَمَين في صفّين لمخالفتهما القرآن.

وفي اليومين الأخيرين من حياته عليه السلام أدنى ابنه الحسن عليه السلام إليه وأوصاه قائلاً: «يا بنيّ إنّه أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أوصي إليك، وأدفع إليك كتبي وسلاحي... وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين...»[1].

وبعد استشهاد الإمام عليّ عليه السلام اجتمع الناس حول الإمام الحسن عليه السلام وبايعوه، وكان أوّلهم عبد الله بن العباس، وبلغ عدد المبايعين أكثر من أربعين ألفاً[2]، وبقي نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق، وما وراءه من خراسان والحجاز واليمن.

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ أبو الفضل ابن الحسن الطبرسي: ١/٤٠٥، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ط ١، ١٤١٧هـ.

(٢) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٦/٣٠ و٣١.

الحسن عليه السلام وتمرّد معاوية

كتب الإمام الحسن عليه السلام بعد تسلّمه الخلافة إلى معاوية كتاباً، أرسله مع جندب بن عبد الله الأزديّ يدعوه فيه إلى الطاعة وعدم التمادي في الباطل وحقن الدماء، فأجابه معاوية متمرّداً، وبعث الجواسيس إلى الكوفة والبصرة لإشاعة البلبلة والاضطراب بين الناس وإفساد الوضع.

وظلّ الإمام عليه السلام يبادل معاوية الرسائل لإلقاء الحجّة عليه في حقن دماء المسلمين، إلّا أنّ معاوية تمادى في غيّه وتمرّده. وكان آخر كتاب من معاوية يتضمّن تهديده للإمام الحسن عليه السلام ، فأجابه الإمام عليه السلام بما يليق به، وعلى الأثر بدأ معاوية بتحرّكاته العسكريّة وسار إلى العراق بجيشٍ تعداده ستّون ألفاً أو أكثر.

مؤامرات معاوية

تحرّك الإمام عليه السلام لمواجهة معاوية بجيشٍ كبير بقيادة عبيد الله بن العبّاس. وحاول معاوية الإغارة على جيش الإمام عليه السلام فلم يقدر ورجعت خيله مقهورة، فلجأ إلى الحيلة فأرسل إلى عبيد الله بأنّ الحسن عليه السلام قد راسله في الصلح، وطلب إليه الدخول في طاعته مقابل ألف ألف درهم، فانطلت الخديعة على عبيد الله، فانسلّ ليلاً ودخل عسكر معاوية ومعه ثمانية آلاف[٣]٣ فتسلّم القيادة من بعده قيس بن سعد بن عبادة. وحاول معاوية أيضاً إغراءه بالمال فرفض. لكنّ معاوية استمرّ في دسائسه، وتوالت الخيانات في جيش الإمام عليه السلام والتحق الكثير منهم بمعاوية.

وقد كان جيش الإمام الحسن عليه السلام متعدّد الولاءات، فبعضهم شيعة له، وبعضهم خوارج، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم أصحاب عصبيّة اتّبعوا رؤساء قبائلهم، وبعضهم له ولاء للأمويّين وله اتصالات سرّية معهم، فلا غرابة من توالي الخيانات، وعدم الثبات مع الإمام عليه السلام حتّى النهاية.

واستمرّ معاوية في بث الدسائس وإشاعة الخبر عن قيس بن سعد ومصالحته له والتحاقه به، وكذلك عن الإمام الحسن عليه السلام وقبوله الصلح.. وبعد تعرّض الإمام عليه السلام لعدّة محاولات استهدفت قتله،

(٣) تاريخ اليعقوبي، م.س: ٢/٢١٤.

وبعـد أن يئـس من حسـم المعركة وخاف عليه‌السلام علـى البقيّة من شيعتـه، جاءته وفـود معاوية تدعوه للصلـح، وكان مع آخر الوفود صحيفة بيضاء، موقّعٌ على أسفلها، بخطّ معاوية وختمه: أن اشترط في هذه الصحيفة الّتي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك[١].

أخبر الإمام الحسن عليه‌السلام جيشه بدعوة معاوية للصلح، وظهر له عليه‌السلام أنّ جيشه غير مستعدّ للقتال لانهيـاره العسكريّ والمعنويّ، وأنّـه لا يقوى على مواجهة جيش معاويـة المتماسك في صفوفه، والمسلّم لمعاويـة تسليمـاً مطلقاً، فأجاب عليه‌السلام إلى الصلـح، وكان الصلح أفضل موقـف في تلك الظروف ولا خيار له غيره.

شخصيّة معاوية

أسلـم معاويـة بعد فتح مكّة، وبعد أن اشترك في مواجهات مسلّحـة ضدّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم طيلة العهد المكّيّ والمدنيّ، لذا لم يكن إسلامه انقياداً حقيقيّاً للّه ولرسوله، ولم يتفاعل مع مفاهيم الإسلام وقيمه فكريّـاً وعاطفيّاً وسلوكيّاً، بل أسلم ليَسلم ويحفظ حياته. ومع كلّ هذا التأريخ القاتم فقد مارس شتّى الأساليب غير المشروعة لتثبيت حكمه وتقوية كيانه، كحاكم على المسلمين، وكان منها:

١. وضع الأحاديث المتضمّنة بيان فضله وفضل أهل الشام[٢].
٢. اختلاق الأحاديث الّتي تشوّه سمعة الإمام عليّ عليه‌السلام وأهل البيت عليهم‌السلام.
٣. إنفاق الأموال في شراء الضمائر، وتوسيع القاعدة الشعبيّة له[٣].
٤. استغـلال المفاهيم العامّة للتمويه علـى الأمّة، كتبنّي فكرة الجبر والترويج لها، لكي يبقى مسلَّطاً على رقاب الناس وحاكماً عليهم.
٥. حكمه برأيه دون الرجوع إلى الكتاب والسنّة.

---

(١) تاريخ الطبري، م.س: ١٦٢/٥.

(٢) ذكـر ابـن حجر (ت ٨٥٢ هـ) في لسان الميزان: ٢٢٠/٢، ط١، مؤسسة الأعلمي عن دائرة المعارف النظاميّة، الهند، ١٣٢٩ هـ، عن أبي هريرة مرفوعاً (إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم): "الأمناء ثلاثة أنا وجبرائيل ومعاوية"، ثمّ قال ابن حجر: وهذا كذب.

(٣) روي أنّ معاويـة بـذل لسمرة بن جندب ٤٠٠ ألف درهم من بيت المال ليروي أنّ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِـدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ نزلت في عليّ عليه‌السلام ، ففعل، راجع: الغدير، الأميني: ١٠١/٢، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٧م.

واستطاع من خلال هذه التصرّفات أن يجعل نفسه شخصيّة مقدّسة في نفوس أهل الشام. وقد تمرّن على المناورة السياسيّة لعدم تقيّده بالشريعة والقيم الإسلاميّة. وكان مستعدّاً للدخول في أيّة معركة متوقّعة أو مفاجأة، لأنّ أوامره نافذة في جيشه، فلا يوجد له منافس في أهل الشام، ليقوم بتثبيط الناس أو صرف ولائهم عنه.

ظروف الحكم الأمويّ والعلويّ

إنّ صلح الإمام الحسن عليه السلام لم يكن منفصلاً عن ظروفه وأسبابه البعيدة الّتي شكّلت صراعاً داخل الجسد الإسلاميّ الواحد.

فقد تهيّأت كلّ الظروف للأمويّين ليتحكّموا في رقاب الناس، أمّا الإمام عليّ عليه السلام ومن بعده ولده الحسن عليه السلام فقد واجها الكثير من المشكلات والمصاعب، ويتبيّن ذلك من خلال:

إنّ الطلقاء[٤] استطاعوا أن يجدوا لهم موقعاً ومركزاً حسّاساً في داخل الكيان الإسلاميّ. فقد كان معاوية والياً على الشام في عهد الخلفاء، وكانت له صلاحيّات مطلقة، حتّى أنّ عُمَرَ كان يحاسب جميع ولاته غير معاوية، وكان يمدحه كثيراً، وينهى عن ذمّه، ويقول عنه: هذا كسرى العرب[٥]٨. واستقلّ معاوية بالشام استقلالاً حقيقياً نظراً لصلاحيّاته المطلقة، وكوّن جيشاً مطيعاً منقاداً إليه، عن طريق الخداع والتضليل وشراء الضمائر، بأموال المسلمين، ولم يعرف أهل الشام من الإسلام إلّا ما يقوله معاوية، فكان الناس يفهمون أنّ معاوية خال المؤمنين، وموضع ثقة الخلفاء السابقين وابن عم الخليفة عثمان، إضافة إلى ما نسبه وعّاظ السلاطين إليه من فضائل بعد غياب الوعي وعدم الاختلاط ببقيّة الأمصار.

في مقابل ذلك فإنّ الإمام عليّاً عليه السلام تولّى الخلافة بعد فتنة تصارعت فيها الأهواء، واصطدمت فيها المصالح، وانتشر المنافقون والمتربّصون بأهل البيت عليهم السلام في جميع الميادين الاجتماعيّة والسياسيّة

(٤) وهم الّذين دخلوا في الإسلام بعد فتح مكّة وتحت ظلال السيوف، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، بعد أن كانوا أسرى في يده فأعتقهم.

(٥) تاريخ الخلفاء، جلال الدِّين عبد الرحمن، السيوطي: ٦/ ١١٤، تحقيق محمّد محيي الدِّين عبد الحميد، منشورات الشريف الرضي، قم، ط١، ١٤١١هـ.

وانخرطوا تحت جميع الرايات والشعارات الّتي رُفعت في مواجهة حكومة أمير المؤمنين عليه السلام .

وفي بداية خلافة الإمام عليّ عليه السلام تمرّد جماعة ممّن اشتُهر بالصحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم عائشة وطلحة والزبير، واستثمر معاوية ظروف حرب الجمل وظروف مقتل عثمان، فحارب أمير المؤمنين عليه السلام في صفّين وانتهت المعركة بعدد كبير من القتلى، من ضمنهم كبار الشخصيّات الموالية لأهل البيت عليهم السلام.

ولم تسمح الظروف لأمير المؤمنين عليه السلام كي يبني دولته وجيشه بناءً عقائديّاً وسلوكيّاً، ولم تستمرّ خلافته سوى أربع سنين حتّى اغتالته أيدي المتآمرين للحيلولة دون أن يقوم بإكمال المسيرة الّتي تحتاج إلى زمنٍ طويل والمتمثّلة في بناء الدولة الإسلاميّة - بعد الانحرافات الّتي أصابتها في خلافة من تقدّم عليه عليه السلام - وتأسيس جيشٍ عقائديّ متماسك.

خلاصة الدّرس

- إنّ تأكيد الإمام عليّ عليه السلام على إمامة ابنه الحسن عليه السلام من بعده يمثّل مساراً عقائدياً، وامتداداً شرعياً لحقيقة إمامة الحسن عليه السلام من بعد أبيه.
- أراد معاوية من خلال حكمه أن يعيد الجاهليّة ولكن تحت غطاء الإسلام. وكان يعتمد دائماً في تصرّفاته أسلوب الخداع والتضليل وسياسة البطش والتنكيل مع المعترضين على سياسته.
- تصدّى الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية، وكاتبه لإلقاء الحجّة عليه، ولكنّه تمادى في غيّه، وتمرّد على أوامر الإمام عليه السلام وأخذ يهيئ العدّة لقتاله، واستعمل الحرب النفسيّة لإشاعة الخوف وبثّ الرعب في نفوس الناس. ولعبت الدعاية المضلّلة دوراً خبيثاً، فالتحق بجيش معاوية بعض قادة جيش الإمام عليه السلام فمالت كفّة الحرب إلى صالح معاوية قبل وقوعها، ودبّ الوهن في جيش الإمام الأمر الّذي أدّى إلى تعريض حياة الإمام عليه السلام إلى الخطر، ممّا اضطّره عليه السلام إلى الركون للصلح ليحفظ بذلك وحدة الأمّة وكيانها.

١٠

الدرس العاشر

الإمام عليّ والتمهيد لإمامة الحسن عليهما السلام ٢

الدرس العاشر

الإمام عليّ والتمهيد لإمامة الحسن عليهما السلام ٢

ظروف وأوضاع جيش الإمام الحسن عليه السلام

أشرنا سابقاً إلى أنّ جيش الإمام الحسن عليه السلام لم يكن موحّداً في أفكاره وعواطفه، بل كان خليطاً من ولاءات متعدّدة. وقد عبّر الإمام الحسن عليه السلام عنه قائلاً: «رأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحدٌ أبداً إلّا غُلب، ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هوى، مختلفين، لا نيّة لهم في خير ولا شرّ»[1].

وقد لعبت الأهواء والشهوات والمنافع الذاتيّة دوراً في تبدّل النوايا عمّا كانت عليه من قبل. وقد وصف الإمام الحسن عليه السلام هذه الظاهرة قائلاً: «كنتم في مسيركم إلى صفّين، ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم»[2].

وحينما يصبح أمر الدنيا مقدّماً على أمر الدِّين وحاكماً عليه فإنّه يغيّر من الموقف ومعادلة الصراع، ويصبح المقاتل تابعاً لمصالحه الذاتيّة الّتي تغيّر من ولائه ومواقفه العمليّة.

ولم تبق إلّا القلّة المخلصة في ولائها للإمام الحسن عليه السلام ولنهجه السليم كحِجْر بن عديّ وقيس بن سعد وآخرين، حيث إنّ معركة صفّين قد أدّت إلى فقدان الكثير منهم، إضافة إلى قيام معاوية بقتل آخرين كمحمّد بن أبي بكر ومالك الأشتر.

وأفرز تعدّد الولاءات وتعدّد الآراء إضافة إلى تقديم الدنيا على الدِّين الظواهر السلبيّة التالية:

١. عدم الإخلاص في القتال.
٢. ضعف القدرة على الثبات والصمود إلى آخر المعركة.
٣. عدم الانقياد للقيادة الصالحة، والتعاطف مع معاوية طمعاً في دنياه.
٤. الاستعداد الفعليّ للغدر والخيانة.
٥. التأثّر بالإشاعات والحرب النفسيّة.

---

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ٤٠٧/٣.

(٢) بحار الأنوار، م.س: ١٥/٤٤.

وقد أدّى ذلك بالفعل إلى التحاق بعض جند الإمام عليه السلام بجيش معاوية، بل الاستعداد لتسليم الإمام عليه السلام إليه، إضافةً إلى محاولات اغتياله عليه السلام .

ولم يكن الإمام الحسن عليه السلام ليستعمل تلك الوسائل والأساليب الّتي كان يستخدمها معاوية، كالخداع والتضليل وشراء الضمائر بأموال المسلمين وإنفاقها على جماعة خاصّة كرؤساء القبائل وقادة الجيش، فالإمام عليه السلام مقيّد بقيودٍ شرعيّة وقيم سامية حاكمة على جميع ممارساته ومواقفه، وهكذا أصبح الإمام الحسن عليه السلام أمام خيارين، هما:

الأوّل: الاستمرار في معركة خاسرة تؤدّي إلى إضعاف الكيان الإسلاميّ ككلّ أمام التحدّيات الخارجيّة.

الثاني: الاتّجاه والميل إلى الصلح وحقن الدماء، والمحافظة على الوجود الإسلاميّ ثمّ ممارسة الإصلاح من الداخل.

وفي غير ذلك فالمعركة إمّا أن تؤدّي إلى استيلاء معاوية على الحكم دون قيد أو شرط بعد مقتل الإمام الحسن عليه السلام وأهل بيته والخيرة من أصحابه، وإمّا أن تؤدّي إلى قيام دولتين إحداهما في الكوفة وأخرى في الشام، وتبقى كلّ واحدة منهما في حالة صراع دائم مع الأخرى، وتنشغل عن مواجهة الأعداء الخارجيّين، وبالتالي إلى إنهاء الوجود والكيان الإسلاميّ. فاختار الإمام عليه السلام الصلح على الاستمرار في المعركة، مقيّداً بشروط فيها مصلحة الكيان الإسلاميّ وكيان الجماعة الصالحة الّتي تضمن للشريعة بقاءها واستمرار حياتها.

لماذا اختار الإمام عليه السلام الصلح وعدم التضحية؟

إنّ مواقف الإمام الحسن عليه السلام هي الّتي تنسجم مع المصلحة الإسلاميّة العُليا بلا شكّ في ذلك ولا ريب. وهذا الموقف الصعب الّذي اختاره جاء نتيجة للظروف الّتي عاشها الإمام عليه السلام وفرضت عليه هذا الخيار والّتي يمكن اختصارها بما يلي:

أوّلاً: إنّ معاوية أحكم خطّته وأظهر نفسه بمظهر المسالم المحبّ للصلح وحقن الدماء، وأراد أن يُلصق بالإمام الحسن عليه السلام رغبته في القتال وإراقة الدماء.

ثانياً: إنّ استمرار القتال سيؤدّي قطعاً إلى قتل الإمام الحسن عليه السلام من قبل عملاء معاوية المندسّين في جيشه، وسيتنصّل معاوية من جريمة قتله. أو سيؤدّي القتال إلى تسليم الإمام عليه السلام إلى معاوية

مـن قبل رؤساء بعض القبائل أو قادة الجيش، وفي جميع التقادير سيكون معاوية هو الغالب كما ورد ذلك في قول الإمام عليه السلام: «يزعمون أنّهم لي شيعة، ابتغوا قتلي وانتهبوا ثِقْلي وأخذوا مالي، والله لئن آخذ من معاوية عهداً أحقن به دمي وآمن به في أهلي خير من أن يقتلوني، فيضيع أهل بيتي وأهلي، والله لو قاتلت معاوية، لأخذوا بعنقي حتّى يدفعوني إليه سِلماً، فوالله لئن أسالمه وأنا عزيز خير من أن يقتلني وأنا أسيره»[1].

ثالثاً: إنّ تضحية الإمام الحسن عليه السلام ستكون بلا صدى وذلك لقدرة معاوية على احتواء آثارها وتشويه أهدافها.

رابعاً: إنّ هذه التضحية ستؤدّي إلى القضاء على الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام وبقيّة بني هاشم، والصفوة الصالحة من أتباع أهل البيت عليهم السلام وبالتالي ستخلو الساحة لمعاوية وأنصاره من معارضين، وهذا ما سيؤدّي إلى قلب المفاهيم الإسلاميّة من قبل معاوية.

هذا بالإضافة إلى ما ذكرناه من أمور تقدّمت كلّها دفعت الإمام الحسن عليه السلام إلى اختيار الصلح، والّتي يمكن إعادة تلخيصها بما يلي:

١. عدم رغبة جيشه في القتال.
٢. التواطؤ مع معاوية من قبل الكثير من القادة والجنود.
٣. الخيانات الفعلية المتكرّرة والمتمثّلة بالالتحاق بمعاوية، أو الفرار من المعسكرات.
٤. شيوع البلبلة والاضطراب في صفوف القادة والجنود.
٥. عدم الإخلاص للقيادة الشرعيّة.

وقد عبّر الإمام عليه السلام عن الأسباب الّتي أجبرته على القبول بالصلح في كثير من أقواله. كما ركّز عليه السلام على قلّة الأنصار الّذين ينهض بهم للقتال، فقال عليه السلام: «والله ما سلّمت الأمر إليه إلّا لأنّي لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري»[2].

وقال عليه السلام في موقفٍ آخر: «وقد خذلتني الأمّة، وبايعتك يا ابن حرب، ولو وجدت عليك أعواناً يُخلصون ما بايعتك»[3].

---

(١) بحار الأنوار، م.س: ٤٤/ ٢٠.

(٢) م.ن: ٤٤/ ١٤٧.

(٣) م.ن: ١٠/ ١٤٣.

شروط الإمام عليه السلام ووعود معاوية

لم يوقّع الإمام عليه السلام الصلح إلّا بعد أن فرض شروطه على معاوية، ليكون عليه السلام في موقع القوّة دائماً ومعاوية في موقع الضعف على المدى القريب والمدى البعيد معاً، سواء كان معاوية يفي بالشروط أم لا يفي بها، فإنّ عدم الوفاء بها يضمن للإمام عليه السلام ولخطّ أهل البيت عليهم السلام نصراً على المدى البعيد لا محالة.

<u>**أمّا شروط الإمام الحسن عليه السلام فيمكن تحديدها بما يلي:**</u>

١. أن يعمل معاوية بكتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الخلفاء الصالحين.

٢. ليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد لأحدٍ من بعده.

٣. الناس آمنون حيث كانوا في العراق والشام والحجاز وتهامة.

٤. أمان شيعة وأصحاب عليّ عليه السلام على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم.

٥. أن لا يبغي للحسن عليه السلام ولا لأحد من أهل بيته غائلة سرّاً وعلانية، ولا يُخيف أحداً منهم في أُفق من الآفاق.

٦. أن تكون الخلافة للإمام الحسن عليه السلام من بعده.

٧. أن لا يسمّيه أمير المؤمنين.

٨. أن لا يُقيم عنده شهادة.

٩. أن يضمن نفقة أولاد الشهداء من أصحاب الإمام عليّ عليه السلام .

١٠. ترك سبّ الإمام عليّ عليه السلام والعدول عن القنوت عليه في الصلاة.

<u>**أمّا معاوية فقد وعد الإمام الحسن عليه السلام بوعود كثيرة منها:**</u>

١. لك الأمر من بعدي.

٢. لك ما في بيت مال العراق من مالٍ بالغاً ما يبلغ تحمله إلى حيث أحببت.

٣. لك خراج أيّ كور العراق شئت، معونة لك على نفقتك، يجبيها أمينك ويحملها إليك في كلّ سنة.

٤. لك ألّا نستولي عليك بالإساءة.

٥. لا نقضي دونك الأمور.

٦. لا نعصيك في أمرٍ أردت به طاعة الله[٤].

---

(٤) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٦/٣٦.

هـذه الوعـود والشروط الممضاة من قبل الطرفـين، تفرض منطقيّاً على كلّ مـن يُفاضل بين الحرب والصلـح، أن يختـار الصلـح مع تلـك الظروف والموازنـة العسكريّة غـير المتكافئة، وإلّا فـإنّ معاوية سيتسلّـم السلطـة إمّا بانتصـاره العسكريّ أو بقتل الإمام عليه السلام من قبـل عملائه المندسّين في جيش الإمام عليه السلام، وستؤول السلطة إليه دون شروط أو قيود تقيّده أمام المسلمين.

بينما أخذ الإمام عليه السلام عهوداً ومواثيق مقرونة بأَيمان مغلّظة من قبل معاوية على أن يفي بها.

فـإن وفى بمـا تعهّد به، فإنّ الأمـر سيعود إلى الإمام مـن بعده، وستكون لأتبـاع الإمام عليه السلام مطلق الحريّة في أداء دورهم الإصلاحيّ والتغييريّ.

وإنّ شرط عدم تسميته بأمير المؤمنين يسلب عنه شرعيّة الخلافة وإمرة المؤمنين، ويبقى مجرّد حاكمٍ أو ملك في أنظار المسلمين.

وإذا لم يـفِ معاويـة بالشروط فـإنّ الأمّة ستنكشف لهـا حقيقة معاوية والحكم الأمـويّ، وأنّه مجرّد طالب سلطة منذ أوّل شعار أعلنه حين مطالبته بدم عثمان.

خلاصة الدّرس

- لكـي تكون صـورة صلح الإمام الحسن عليه السلام واضحـة في الأذهان، لا بدّ مـن الإحاطة بظروف الحدث وما رافقه من قضايا فرضت على الإمام عليه السلام أن يختار الصلح.
- لم يكـن جيشـ الإمـام عليه السلام موحّداً في أفـكاره وولائه، واستطـاع معاوية بسياسـة الخداع الّتي مارسها أن يشتري بالمال الكثير من رؤساء القبائل وقادة جيش الإمام عليه السلام .
- اختـار الإمـام الحسن عليه السلام الصلـح على القتال بشـروط أعطت ثمارهـا، في المستقبل القريب والبعيد معاً.

١١

الدرس الحادي عشر

نتائج الصلح وآثاره ١

الدرس الحادي عشر

نتائج الصلح وآثاره ١

أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب مبرّرات الصلح.

٢. أن يعدّد نتائج الصلح.

٣. أن يتعرّف إلى الحالة الإسلاميّة بعد الصلح.

تمهيد

تُعتبر المرحلة الّتي صالح فيها الإمام الحسن عليه السلام معاوية بن أبي سفيان من أصعب مراحل حياته عليه السلام وأكثرها تعقيداً وحساسيّة وأشدّها إيلاماً. وقد أصبح صلح الإمام عليه السلام من أهمّ الأحداث في التاريخ الإسلاميّ بما يستبطنه من موقف بطوليّ للإمام المعصوم عليه السلام وبما أدّى إليه من تطوّرات واعتراضات وتفسيرات مختلفة طوال القرون السالفة وحتّى عصرنا الحاضر. وألّف الباحثون المسلمون في توضيح وتحليل الصلح كتباً عديدة، وأصدر الأعداء والأصدقاء أحكامهم بشأنه.

وقد انبرى الباحثون لتحليل مواقف الإمام الحسن عليه السلام والدفاع عن الخطوات الّتي أقدم عليها - كما تبيّن لنا في الدرس السابق - إلّا أنّ هذا لا يعفينا من بيان مبرّرات وأسباب الصلح كما وردت في كلمات الإمام الحسن عليه السلام والّتي تستبطن أيضاً بيان آثاره ونتائجه بحسب رؤيته عليه السلام .

مبرّرات الصلح في كلمات الإمام عليه السلام

١. روى الشيخ الصدوق في "علل الشرائع" بسنده عن أبي سعيد الّذي يسأل الإمام الحسن عليه السلام عن السبب الّذي دفعه إلى الصلح مع معاوية مع أنّه عليه السلام يعلم أنّه على الحقّ وأنّ معاوية ضالّ وظالم، فأجابه الإمام عليه السلام:«يا أبا سعيد، ألستُ حجّة الله تعالى ذكره على خلقه، وإماماً عليهم بعد أبي عليه السلام ؟ قلتُ: بلى، قال: ألستُ الّذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي: الحسن والحسين، إمامان قاما أو قعدا؟ قلت: بلى، قال: فأنا إذن إمام لو قمتُ، وأنا إمام إذا قعدتُ. يا أبا سعيد عِلّة مصالحتي لمعاوية علّة مصالحة رسول الله صلى الله عليه وآله لبني ضُمرة وبني أشجع، ولأهل مكّة حين

انصــرف من الحديبيّــة، أولئك كفّار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفّــار بالتأويل، يا أبا سعيد إذا كنــتُ إمامــاً من قبــل الله تعالى ذكره لم يجــب أن يُسفّه رأيي فيما أتيته مــن مهادنة أو محاربة، وإن كان وجــه الحكمــة فيما أتيتــه مُلتبساً، ألا ترى الخضر عليه السلام لمّا خــرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى عليه السلام فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتّى أخبره فرضي؟ هكذا أنا، سخطتم عليّ بجهلكم بوجه الحكمة فيه، ولولا ما أتيت لما تُرك من شيعتنا على وجه الأرض أحدٌ إلّا قُتِل"[1].

٢. ذكر زيد بن وهب الجهنيّ أنّه جُرِح الإمام عليه السلام في المدائن، فسأله عن موقفه الّذي سيتّخذه في هــذه الظروف، فأجــاب عليه السلام : «أرى والله معاوية خيراً لي من هــؤلاء، يزعمون أنّهم لي شيعة، ابتغــوا قتلي وانتهبوا ثقلي، وأخذوا مالي، والله لإن آخــذ من معاوية عهداً أحقن به دمي وآمَن به في أهلــي خيرٌ من أن يقتلوني فيضيع أهل بيتي وأهلــي، والله لو قاتلتُ معاوية لأخذوا بعنقي حتّى يدفعوني إليه سِلْماً، فوالله لإن أسالمه وأنا عزيز خيرٌ من أن يقتلني وأنا أسيره أو يَمُنّ عليّ فتكون سُبّةً على بني هاشم إلى آخر الدهر، ومعاوية لا يزال يَمُنُّ بها وعقبه على الحيّ منّا والميت...»[2].

٣. وذكر سليم بن قيس الهلاليّ أنّه عندما جاء معاوية إلى الكوفة، صعد الإمام الحسن عليه السلام المنبر بحضوره، وبعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، قال: «أيّها النـاس إنّ معاوية زعم أنّي رأيته للخلافة أهلاً، ولم أر نفسي لها أهلاً، وكذب معاوية، أنا أولى النـاس بالناس في كتاب الله وعلى لسان نبيّ الله، فأُقســم بالله لو أنّ النــاس بايعوني وأطاعوني ونصروني لأعطتهم السماء قَطْرَها، والأرضُ بركتها، ولما طمعتَ فيها يا معاوية، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما ولّت أمّة أمرها رجلاً قطّ وفيهم من هو أعلم منه إلّا لم يزل أمرُهم يذهب سِفالاً، حتّى يرجعوا إلى ملّة عَبَدَةِ العجل..."[3].

(١) علل الشرائع، محمّد بن عليّ بن بابويه المعروف بالصدوق: ٢١٢/١. منشورات المكتبة الحيدريّة في النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٦م، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) بحار الأنوار، م. س، ١٩/٤٤.

(٣) م.ن: ٢٢/٤٤.

نتائج الصلح:

أوّلاً: انكشاف حقيقة معاوية والحكم الأمويّ

فعندما تسلَّمَ معاوية زمام الأمور استسلم لزهو الانتصار، ولم يتمالك نفسه حتّى كشف عن سريرته ومكنونات أهوائه، فأعلن لأهل العراق عن أهدافه الحقيقيّة وهي تتلخّص في الوصول إلى قمّة السلطة، كما جاء ذلك في خطابه حين قال: "إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا، إنّكم تفعلون ذلك، إنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم"[١].

وهذا التصريح كشف عن الوجه الحقيقيّ لمعاوية كشفاً لا يمكن بعد ذلك التستّر عليه بتزوير الأحاديث، وتحريف الوقائع، ولا تقوى المبرّرات الموضوعة للتستّر عليه والّتي كان منها عدالة جميع الصحابة.

ثانياً: انكشاف انحراف معاوية وعدم وفائه بالشروط

لقد كشف الصلح نوايا معاوية في عدم الوفاء بالعهود والمواثيق الّتي قطعها على نفسه وقال: "ألا إنّ كلّ شيء أعطيته للحسن بن عليّ تحت قدميّ هاتين لا أفي به"[٢]ە. وكان لهذا التصريح دور واضح في كشف حقيقة الصراع وأنّه ليس بين قبيلتين أو شخصين، وإنّما هو صراع بين منهجين: منهج الاستقامة الّذي يمثّله الإمام الحسن وأهل البيت عليهم السلام، ومنهج الانحراف والجاهليّة الّذي يمثّله معاوية والأمويّون.

ثالثاً: توسّع القاعدة الشعبيّة لأهل البيت عليهم السلام

استثمر الإمام الحسن عليه السلام الفرصة المتاحة له في ظروف وأجواء الصلح في توسيع القاعدة الشعبيّة لأهل البيت عليهم السلام بنشر الأفكار والمفاهيم السليمة، ونشر فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، ونشر الأحاديث الّتي توجّه الأنظار إلى إمامة أهل البيت عليهم السلام ودورهم القياديّ في الأمّة، ونشر مطلق أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن منع الخلفاء الثلاثة نشرها في العهود السابقة.

(١) مقاتل الطالبيّين، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق كاظم المظفّر: ٧٠، منشورات المكتبة الحيدريّة في النجف الأشرف، ط ٢، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

(٢) م.ن: ٦٩.

واستطـاع الإمام عليه السلام أن يضع اللّبنات الأولى لمشـروع تعرية الحكم الأمويّ وبيان حقيقته الجاهليّة لكـي تأتـي اللّبنة الأخـرى في مراحل الحركـة الرسالية ولتكون الأمّـة في حالة تعبئـة نفسيّة وروحيّة للتفاعـل مع ثـورة الإمام الحسين عليه السلام فيما بعد. فقد تفاعل صلـح الحسن عليه السلام مع ثورة الحسين عليه السلام ليؤدّيا بالنتيجة إلى تبنّي الجهاد المسلّح لإيقاف انحراف الحاكم وإزالته.

ما بعد الصلح حتّى الشهادة

بقـي الإمـام الحسـن عليه السلام في الكوفة أيّاماً، ثـمّ عزم على مغـادرة العراق، والشخوص إلى مدينة جـدّه صلى الله عليه وآله وسلم. وقد أظهر عزمه ونيّتـه إلى أصحابه الّذين طلبوا منه المكث في الكوفة فامتنع عليه السلام عن إجابتهم قائلاً: "ليس إلى ذلك من سبيل".

ولـدى توجّهـه عليه السلام وأهل بيتـه عليهم السلام إلى عاصمة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم خـرج أهل الكوفة بجميـع طبقاتهم إلى توديعه وهم ما بين باكٍ وآسف، إلى أن وصل عليه السلام إلى يثرب حيث خرج أهلها جميعاً لاستقباله، فقد أقبل إليهم الخير وحلّت في ديارهم البُشرى والرحمة.

مكث الإمام الحسن عليه السلام عشر سنين، استطاع أن يُبرز فيها مرجعيّته العلميّة والدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وهذا ما سنعرضه بإيجاز:

١. مرجعيّته عليه السلام العلميّة والدينيّة

وتمثّلت في تربيته لكوكبة من طلّاب المعرفة، وتصدّيه للانحرافات الدينيّة الّتي كادت تؤدّي إلى مسخ الشريعة، كما تصدّى لمؤامرة مسخ السنّة النبويّة الشريفة الّتي كان يخطّط لها معاوية بن أبي سفيان من خلال تنشيط وضع الأحاديث واختلاقها والمنع عن تدوين الحديث النبويّ.

وأنشـأ الإمـام عليه السلام مدرسته الكـبرى في المدينة، وراح مجدّاً في نشر الثقافـة الإسلاميّة في المجتمع الإسلامـيّ. وقد تخرّج مـن مدرسته كبار العلماء وعظماء المحدّثين والرواة. وقد ذكر المؤرّخون بعض أعلام تلامذته ورواة حديثه وهم: ابنه الحسن المثنّى، والمسيّب بن نجبة، وسويد بن غفلة، والعلا بن عبـد الرحمـن، والأصبغ بن نباتة، وعيسى بن مأمون بن زرارة وإلـخ...، وقد ازدهرت المدينة المنوّرة بهذه الكوكبة من العلماء والرواة فكانت من أخصب البلاد الإسلاميّة علماً وأدباً وثقافةً.

٢. مرجعيّته الاجتماعيّة

والّتي تمثّلت في عطفه على الفقراء وإحسانه إليهم وبذله المعروف لهم، وتجلّت في استجارة المستجيرين به للتخلّص من ظلم الأمويّين وأذاهم.

لقد كان الإمام عليه السلام موئلاً للفقراء والمحرومين، وملجأً للأرامل والأيتام، وكان عليه السلام في عاصمة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم كهفاً منيعاً لمن يلجأ إليه، وكان عليه السلام مثالاً في الكرم والإحسان. وقد روي أنّه قاسم الله تعالى ماله مرّتين، ولنعم ما قال فيه الشاعر:

يا ابن النبيّ المصطفى   وابن الوصيّ المرتضى

يا ابن الحطيم وزمزم   وابن المشاعر والصفا

يا ابن السماحة والندى   وابن المكارم والنُّهى[1]

خلاصة الدرس

- كشف صلح الإمام الحسن عليه السلام زيف السياسة الأمويّة، ووضع الحقيقة الناصعة أمام الأمّة الّتي اكتشفت حكمة الإمام الحسن عليه السلام ودوره في تفويت الفرصة على معاوية بالفتنة.

---

(١) مناقب آل أبي طالب، مشير الدين أبو عبد الله بن شهرآشوب: ٣/ ١٨١، المكتبة الحيدريّة، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.

١٢

الدرس الثاني عشر

نتائج الصلح وآثاره ٢

الدرس الثاني عشر

نتائج الصلح وآثاره ٢

أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب مبرّرات الصلح.

٢. أن يعدّد نتائج الصلح.

٣. أن يتعرّف إلى الحالة الإسلاميّة بعد الصلح.

٣. مرجعيّة الإمام الحسن عليه السلام السياسيّة

لقد صالح الإمام الحسن عليه السلام معاوية من موقع القوّة، كما نصّت المعاهدة على أن يكون الأمر من بعده للإمام الحسن عليه السلام وأن لا يبغي معاوية له الغوائل والمكائد.

ومن الطبيعيّ أن يكون الإمام عليه السلام محور المعارضة وأن ينغّص على بني أميّة ومعاوية ملكهم، ولذا نجد في لقاءاته بالولاة ورسائله وخطبه نشاطاً سياسيّاً واضحاً تمثّل في:

أ. مراقبته للأحداث ومتابعتها ومراقبة سلوك الحكّام وعمّالهم، وأمرهم بالمعروف وردعهم عن المنكر.

ب. النشاط السياسيّ المنظّم والّذي كان يتمثّل في استقباله لوفود المعارضة، وتوجيههم.

جـ. عدم تعاطفه مع أركان النظام الحاكم بالرغم من محاولاتهم لكسب عطف الإمام عليه السلام، وقد تمثّل هذا الجانب في رفضه لمصاهرة الأمويّين[١]. وفضحه لخططهم وكشفه لواقعهم المنحرف وعدم استحقاق معاوية للخلافة، وتجلّى ذلك بوضوح في مناظراته مع معاوية وبطانته في المدينة ودمشق على حدّ سواء[٢].

---

(١) كتب معاوية إلى عامله على المدينة مروان بن الحكم أن يخطب ليزيد زينب بنت عبد الله بن جعفر على حكم أبيها في الصِّداق، وقضاء دينه بالغاً ما بلغ.

(٢) جرت عدّة مناظرات بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، بيَّن فيها الإمام عليه السلام دور أهل البيت عليهم السلام القيادي في الأمّة، وفضلهم، وأعطى للمعارضة زخماً جديداً وفاعليّة كبيرة.

شهادة الإمام عليه السلام

حـاول معاوية أن يجعل الخلافة ملكاً عضوضـاً ووراثةً في أبنائه، ومن هنا قرّر اغتيال الإمام المجتبى عليه السلام بمـا اغتال به من قبلُ مالـكاً الأشتر وسعد بن أبي وقّاص وغيرهما. وقد دعا معاوية مروان بن الحكـم وطلـب منـه إقناع "جعدة بنت الأشعث بن قيس الكنـديّ" - وكانت من زوجات الإمام عليه السلام - بـأن تسقـي الحسن عليه السلام السمّ، فإن هو قضى نحبه زوّجها يزيـد، وأعطاها مائة ألف درهم، وتمّ لمعاوية ما أراد حيث دسّت السمّ للإمام الحسن عليه السلام، واستشهد عليه السلام بالمدينة يوم الخميس لليلتين بقيتا من صفر سنة خمسين من الهجرة أو تسع وأربعين.

سياسة معاوية

استمـرّ معاويـة في منهجه المعادي للإسـلام، وقام بخطوات شكّلت مخطّطـاً متكاملاً لهدم الإسلام وإعـادة الجاهليّـة إلى المجتمـع الإسلاميّ باسـم الإسلام وخلافـة الرسول صلى الله عليه وآله وإمـرة المؤمنين، وتتلخّص هذه الخطوات بما يلي:

١. إشاعـة الإرهاب والتصفيـة الجسديّة لكلّ القوى المعارضة للحكم الأمـويّ، لا سيّما أتباع الإمام عليّ عليه السلام منهم، وكان في طليعة ضحايا تلك المجازر الرهيبة كوكبة من الصحابة الأبرار أمثال: حِجْر بن عديّ وجماعته، ورشيد الهجريّ، وعمرو بن الحمق الخزاعيّ، وسواهم الكثير...

٢. إغـداق الأموال من أجل شـراء الضمائر والذمم إمعاناً في إذابـة الشخصيّة الإسلاميّة، وقد تمّ فعلاً شراء نوعين من النـاس:

أ - بعض الوعّاظ والمحدّثين الّذين كان لهم دور مفضوح في العمالة لمعاوية وافتراء الأحاديث الكاذبة ونسبتها إلى الرسول صلى الله عليه وآله للنيل من عليّ عليه السلام وأهل بيته قاطبة.

ب - شراء ضمائر الوجوه الاجتماعيّة الّتي يُخشى من تحرّكها ضدّ الحكم الأمويّ. وليس أدلّ علـى ذلك من إرسال معاوية إلى مالك بن هبيرة السكـونيّ ألف درهم حين بلغه استياؤه من قتل معاوية للصحابي الجليل حجر بن عديّ وأصحابه، فما كان من السكونيّ إلّا أن أخذ ثمن ضميره وتخلّى عن عزمه على التحرّك بوجه الظلم والفساد!.

٣. المضايقة الاقتصاديّة وأسلوب التجويع: وهو أكثر الأساليب الأمويّة تأثيراً في نفسيّة الأمّة المسلمة بإذلالهـا وإشاعـة المسكنة في نفوس أبنائها. ومـن الشواهد على ذلك - وهي كثـيرة - ما كتبه

معاويــة إلى ولاتــه في جميــع الأمصار: «انظروا منْ قامــت عليه البيّنة أنّه يحــبّ عليّاً وأهل بيته، فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه»[1].

٤. العمــل على تمزيق أواصر الأمّة الإسلاميّة بإثارة الروح القوميّة والقبليّة بين قطاعاتها المختلفة، إمعانــاً منه في إلهاء الأمّة في تناقضات جانبيّة على حســاب تناقضها الأساس مع الحكم الأمويّ الجائــر، كالصــراع الّذي نشب بين قيس ومضــر، وأهل اليمن والمدينة، وبــين قبائل العراق فيما بينهــا، وإثارة العنصريّة عند العرب ضدّ المسلمين من غير العــرب الّذين يُعرفون تأريخياً باسم الموالي.

٥. فرض البيعة لولده (يزيد) المُعلن بفسقه وتحكيمه في رقاب المسلمين.

وهكــذا استكمل معاوية مخطَّطه الجاهليّ حــين نقض كلّ بنود الوثيقة الّتي عقدها مع الإمام الحسن عليه السلام. وكان أعظــم تجاوز له على حدود المفهــوم الإسلاميّ في الحكم من خلال اتّخاذ الوراثة ذات الطابع الدكتاتوريّ أُطروحة للحكم في دنيا المسلمين.

البيعة ليزيد

لقــد تبلور واقع الانحراف الّــذي خطّطت له السياسة الأمويّة المتمثّلــة في خطط معاوية حينما تسلّط ابنه يزيد على زمام الحكم.

فقد قرّر معاوية أن ينصّب يزيدَ خليفة على المسلمين من بعده، ويأخذ البيعة له بنفسه خلافاً للأعراف والأحــكام الإسلاميّــة المتّبعة حينذاك في تعيــين الخليفة، فأثار هــذا القرار الرأي العــامّ الإسلاميّ وخصوصــاً الشخصيّات الإسلاميّة البارزة كالإمام الحسين بــن عليّ عليه السلام وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر.

ومن شدّة مكره ودهائه استطاع عندما كان في مكّة للحجّ أن يُوهم النــاس ويقنعهم بأنّ هذه الشخصيّات

(١) شرح نهج البلاغة، م.س: ١١/٤٥.

قـد بايعت يزيد بالخلافـة، فقال الناس: بايع ابن عمر، وابن أبي بكـر، وابن الزبير، وهم يقولون: لا والله ما بايعنا، فيقول الناس: بلى، وارتحل معاوية فلحق بالشام[٢].

حقيقة يزيد

إنّ منح يزيد السلطة ليقود الأمّة الإسلاميّة ويخطّط لمستقبلها، معناه الإنهاء العمليّ للوجود الإسلاميّ على الإطلاق.

فيزيـد – كمـا تؤكّد المصـادر التاريخيّة – كان يغلـب عليه طابع الشذوذ في شتّـى أفكاره وممارساته ومشاعره.

قـال البلاذريّ: كان ليزيد قـرد يجعله بين يديه ويكنّيه أبا قيس، ويقول: هـذا شيخ من بني إسرائيل أصاب خطيئة فمُسخ، وكان يسقيه النبيذ ويضحك ممّا يصنع، وكان يحمله على أتان وخشبة ويرسلها مع الخيل[٣].

وقـال المسعـوديّ: وكان يزيد صاحب طرب وجـوارح[٤] وكلاب وقرود وفهود ومنادمـة على الشراب، وغلب على أصحابه وعمّاله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيّامه ظهر الغناء بمكّة والمدينة، واستُعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب[٥].

وهكذا وقفت الأمّة على عتبة تأريخ جديد من حياتها وأصبحت أمام خيارين:

١. إمّا أن تتبنّى سياسة الرفض القاطع للواقع الّذي فُرض عليها مهما كان الثمن.
٢. أو القبـول بسياسة الأمر الواقع، حيث عليهـا أن تتنازل عن رسالتها وسرّ عظمتها وعنوان عزّتها في الحياة.

---

(٢) تاريخ الخلفاء، م.س: ١٩٦ ـ ١٩٧. وهذه البيعة أخذها معاوية ليزيد من الناس في مكة المكرّمة عندما حجّ إلى بيت الله سنة إحدى وخمسين.

(٣) أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري تحقيق الشيخ محمّد باقر المحمودي: ٤/١ –٢. مؤسسة الأعلمي، ط ١، بيروت، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

(٤) تاريخ الخلفاء، م.س: ١٩٦ ـ ١٩٧، والجوارح: السباع والطير ذات الصيد.

(٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر، م.س: ٦٧/٣.

خلاصة الدرس

- طارد معاوية أنصار الإمام عليّ عليه السلام والحسن عليه السلام ونكّل بالمؤمنين شرّ تنكيل وأدخل في الإسلام ما ليس منه، ومهّد الطريق أمام تنفيذ الحكم الأمويّ بالحديد والنار.
- استثمر الإمام عليه السلام أجواء الصلح في توسيع القاعدة الشعبيّة الّتي ربّاها أبوه عليّ عليه السلام بنشر الأفكار والمفاهيم السليمة.
- تلخّص منهج معاوية في هدم الإسلام بإشاعة الإرهاب والتصفية الجسديّة لكلّ القوى المعارضة وإغداق الأموال لشراء الضمائر وسياسة التجويع وتمزيق أواصر الأمّة بإثارة الروح القوميّة واغتيال الإمام الحسن عليه السلام ، وفرض البيعة ليزيد الفاسق، متحدّياً بذلك قيم الرسالة وسنّة جميع الخلفاء السابقين عليه.
- وقف الناس بعد البيعة ليزيد أمام خيارين: إمّا رفض الحكم والحاكم المنحرف، أو الخضوع للانحراف الّذي يمثّل عودة الجاهلية بكلّ ثقلها إلى الساحة السياسيّة من جديد.

١٣

الدرس الثالث عشر

منهج الإمام الحسين عليه السلام ١

الدرس الثالث عشر

منهج الإمام الحسين عليه السلام ١

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى المنهج الحسينيّ في التصدّي للانحرافات.

٢. أن يستذكر العوامل التي أدّت للثورة الحسينيّة.

٣. أن يتبيّن واقع الأمّة ما قبل الثورة.

تمهيد

بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام نهض الإمام الحسين عليه السلام بأعباء الإمامة وتحرّك وفق مسؤوليّته تجاه شريعة ربّه وأمّة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم بصفته وريث النبوّة، مراعياً ظروف الأمّة ومراقباً لمدى تدهورها وساعياً للمحافظة على ثمرة جهود الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد عمل الإمام عليه السلام في فترة حكم معاوية على تحصين الأمّة ضدّ الانهيار التامّ وإعطائها من المقوّمات القدر الكافي، كي تتمكّن من البقاء صامدةً في مواجهة المحن الّتي تستولدها الجاهليّة الأمويّة.

ويمكن أن نلخّص مجمل نشاطه في هذه الفترة بما يلي:

١. مواجهة معاوية وبيعة يزيد

بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام قرّر معاوية أن يُسافر بنفسه إلى المدينة ليأخذ البيعة لابنه يزيد ويقنع المعارضين. وبعد أن اجتمع بالإمام عليه السلام وعبد الله بن العبّاس أشاد بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأثنى عليه، وعرض بيعة ابنه ومنحه الألقاب الفخمة ودعاهما إلى بيعته، فانبرى الإمام عليه السلام وواجهه بكلام ذُهِل له معاوية.

وقد اتّسم موقف الإمام عليه السلام من معاوية بالشدّة والصرامة، وأخذ يدعو المسلمين علناً إلى مقاومة معاوية، ويحذّرهم من سياسته الهدّامة.

٢. جمع الكلمة والاستجابة للجماهير

أخذت الوفود تترى على الإمام الحسين عليه السلام من جميع الأقطار الإسلاميّة، وهي تستغيث به نتيجة

الظلم والجور الّذي حلّ بهم، وتطلب منه القيام بإنقاذها من الاضطهاد. ورفع والي المدينة مروان بن الحكم كتاباً إلى معاوية يصف له فيه تجمّع الناس واختلافهم إلى الإمام عليه السلام .

٣. فضح جرائم معاوية

كتب الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية مذكّرةً خطيرةً كانت جواباً لرسالته يحمّله فيها مسؤوليّات جميع ما وقع في البلاد من سفك الدماء وفقدان الأمن وتعريض الأمّة للأزمات، وممّا جاء فيها: «... ألست قاتل حِجْر بن عديّ أخا كِندَة وأصحابه المصلّين العابدين... قتلتهم ظلماً وعدواناً... أولستَ قاتل عمرو بن الحمق الخزاعيّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... أولستَ بمدّعي زياد بن سميّة المولود على فراش عُبيد ثقيف، فزعمت أنّه ابن أبيك؟... أولستَ قاتل الحضرميّ الّذي كتب فيه إليك زياد أنّه على دين عليّ فكتبت إليه أن اقتل كلّ من كان على دين عليّ؟»[1].

ولم يصل إلينا وثيقة سياسيّة في ذلك العهد عرضت لعبث السلطة وسجّلت الجرائم الّتي ارتكبها معاوية غير هذه الوثيقة، وهي صرخة في وجه الظلم والاستبداد.

٤. استعادة الحقوق المضيّعة

كان معاوية يُنفق أكثر أموال الدولة على تدعيم ملكه، كما كان يهب الأموال الطائلة لبني أميّة لتقوية مركزهم السياسيّ والاجتماعيّ. وكان الإمام عليه السلام يشجب هذه السياسة، ويرى ضرورة إنقاذ الأموال من معاوية الّذي يفتقد حكمه لأيّ أساس شرعيّ، ولا يقوم إلّا على القمع والتزييف والإغراء. وقد اجتازت على المدينة أموال من اليمن إلى خزينة دمشق، فعمد الإمام عليه السلام إليها ووزّعها على المحتاجين[2].

إنّ الإمام الحسين عليه السلام دلّ بعمله على أنّ الخليفة غير الشرعيّ ليس من حقّه أن يتصرّف بأموال المسلمين، وأنّ ذلك من حقوق الحاكم الشرعيّ، وهو الإمام الحسين عليه السلام نفسه الّذي ينفق أموال بيت المال وفق المعايير الإسلاميّة.

---

(١) شرح نهج البلاغة، م.س: ٤/ ٣٢٧.

(٢) الإمامة والسياسة، م.س: ١/ ٢٨٤.

٥. تذكير الأمّة بمسؤوليّتها

عقد الإمام عليه السلام مؤتمراً سياسيّاً عامّاً دعا فيه جمهوراً غفيراً ممّن شهد موسم الحجّ من المهاجرين والأنصار والتابعين وغيرهم من سائر المسلمين، وانبرى عليه السلام خطيباً فيهم، وتحدّث بما ألمّ بعترة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وشيعتهم من المحن الّتي صبّها عليهم معاوية... وألزم الحاضرين بإذاعة ذلك بين المسلمين.

وكان هذا المؤتمر يتضمّن الإعداد لوضعٍ مستقبليّ كان قد خطّط له الإمام عليه السلام .

الثورة الحسينيّة: العوامل والأهداف:

١. لماذا وقّت الإمام عليه السلام ثورته بموت معاوية؟

بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام بمؤامرة من قبل معاوية ونقض معاوية لبنود الصلح تحرّكت الشيعة وطالبت الإمام الحسين عليه السلام بالتحرّك والثورة ضدّ معاوية، حيث إنّ الحسين عليه السلام كان يملك الدليل المقبول لثورته، ولكنّه لم يستجب لطلباتهم وآثر السكون ما دام معاوية حيّاً.

والسرّ - في عدم ثورته على معاوية - كما يبدو - كان يكمن في أمرين على الأقلّ:

الأوّل: أنّ الوفاء بالعهد خُلق إسلاميٌّ رفيع يمثّله الإمام المعصوم أحسن تمثيل، ولا يسوِّغ الإمام لنفسه أن يهبط إلى مستوى معاوية في نقضه للعهد، بالرغم من أنّ نقض العهد من قِبل معاوية مسوّغ شرعيّ وأخلاقيّ للخروج من تعهّده.

الثاني: أنّ السبب الّذي من أجله عقد الإمام الحسن عليه السلام الصلح مع معاوية ما زال مستمرّاً ونافذ المفعول. والإمام الحسين عليه السلام لن يتحرّك ولن يثور، إلّا إذا تهيّأت الظروف الموضوعيّة الّتي تضمن لثورته تحقيق أهدافها.

وكان السبب في إبرام الصلح أنّ الأمّة الإسلاميّة كانت قد سيطرت عليها حالة الضجر والملل من القتال حينما لاحظت مرارة الصراع بين الإمام عليّ عليه السلام ومعاوية في صفّين، وبينه وبين عائشة وطلحة والزبير في الجمل، وبينه عليه السلام وبين الخوارج في النهروان. وقد سرى هذا الملل والضجر إلى جمعٍ من الموالين لأهل البيت عليهم السلام، ولم يكن بالإمكان علاج هذه الظاهرة حتّى بالتضحية، فكان لا بدّ من الصبر والتأنّي ليتّضح لعامّة المسلمين مدى دَجَل معاوية في تظاهره بالإسلام، ومدى التزام أهل

البيت عليهم السلام بمبادئهم الرساليّة وتفانيهم في الدفاع عن الإسلام.

٢. الدوافع الحقيقيّة للثورة الحسينيّة

هناك أكثر من دافع وسبب لتعليل النهضة الحسينيّة. وقد تكون متداخلة ومترتّبة بعضها على بعض. والأسباب الحقيقيّة لا بدّ أن نستلهمها من صاحب الثورة نفسه ولا يكفي أن نستند فيها إلى تحليلات الآخرين.

ونلاحظ في أكثر من مشهد حسينيّ، ومنذ بداية الحركة إلى نهايتها، إعلان الإمام الحسين عليه السلام أنّه إنّما قام لطلب الإصلاح في أمّة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم ولمهمّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتمثّل في التصدّي للحاكم الجائر المستحلّ لحرمات الله. وحيث لا يتحقّق ذلك إلّا بالتضحية والشهادة في سبيل الله، تعيّن هذا الأسلوب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا سيّما إذا كان تركه يؤدّي إلى محق الشريعة وضياع الرسالة الّتي لا شيء أغلى منها في ميزان الله تعالى.
وللوصول إلى الدوافع والأسباب الّتي حتّمت على الإمام الحسين عليه السلام اختيار طريق التضحية، لا بدّ أن نقف على أبعاد المشكلة الحقيقيّة الّتي كانت تعانيها الأمّة الإسلاميّة في عصر الإمام الحسين عليه السلام لتتّضح لنا مدى سلامة هذا الطريق والاختيار.

وهناك أكثر من مشهد لتصوير مدى عمق مرض فقدان الإرادة في جسم الأمّة وعلى مختلف المستويات والقطاعات الاجتماعيّة بدءً بأقرب الناس إلى أهل البيت عليهم السلام وانتهاءً بالبعيدين عنهم وعن ثقافتهم.

فلا بدّ أن نستعرض بعض النماذج لرسم صورةٍ عن هذا الواقع المؤلم الّذي كان يلمسه الإمام الحسين عليه السلام بكلّ وضوح.

١. لقد انبرت بعض الشخصيات لتخويف الإمام الحسين عليه السلام يوم صمّم أن يرفض بيعة يزيد ويثور عليه. وكانوا يقترحون عليه الحلول الّتي يؤمن معها على حياته عليه السلام وإن كان ذلك على حساب الدِّين وبقائه، ومن هؤلاء: محمّد بن الحنفيّة، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن العبّاس، وعبد الله بن عمر، وكانت نصائحهم تعبّر عن نوعٍ من الانهيار النفسيّ الّذي شمل زعماء المسلمين

فضلاً عن الجماهير.

٢. موقف عامّة زعماء البصرة الموالين لخطّ الإمام عليّ عليه السلام الّذين كاتبهم الإمام الحسين عليه السلام واستنصرهم فلم يستجيبوا لندائه، وكان إقدام الحسين عليه السلام يُعدُّ عند هؤلاء نوعاً من العجلة وقلّة الأناة، فمثلاً كان جواب الأحنف بن قيس الّذي تربّى على يدي الإمام عليّ عليه السلام آية واحدة يأمره فيها بالتصبّر والتريّث.

٣. حينما لقي الإمام الحسين عليه السلام عبيد الله بن الحرّ الجعفيّ استنصره، وكان عبيد الله ممّن عرف الحسين عليه السلام، وعرف خطّ الحسين عليه السلام، لكنّه كان مستعدّاً لأن يقدّم فرسه لمولاه وعزّ عليه أن يقدّم قطرة من دمه في سبيل الله.

٤. ذهب حبيب بن مظاهر الأسديّ ليدعو عشيرته بني أسد لنصرة الإمام الحسين عليه السلام، وما كان من العشيرة إلّا أن غادرت بأجمعها تلك الليلة المنطقة واختارت أن تبقى حياديّة لا إلى الحسين عليه السلام ولا إلى عدوّ الحسين عليه السلام، وهل هذه إلّا الهزيمة النفسيّة الّتي مُنيت بها قطاعات الأمّة بمختلف مستوياتها يومذاك؟

٥. لقد استطاع عبيد الله بن زياد خلال أسبوعين أو ثلاثة بعد مقتل مسلم بن عقيل أن يجنّد الألوف من أبناء الكوفة - ممّن كانوا يحملون الولاء لعليّ عليه السلام وبنيه - ضدّ الإمام الحسين عليه السلام، وهم كانوا قد حاربوا إلى جانب أبيه عليه السلام في صفّين والجمل والنهروان.

أمام هذا الواقع والهزيمة النفسيّة الّتي كانت تعيشها الأمّة الإسلاميّة كان على الإمام الحسين عليه السلام أن يقدّم الموقف النظريّ تجاه الوضع القائم ويضع النقاط على الحروف بنحوٍ ينتهي معه إلى اجتثاث جذور هذا المرض الخبيث. ومن هنا كانت الثورة المسلّحة لاستنهاض النفوس الميّتة وإيقاظها من سباتها وتبديل جُبنها إلى الشجاعة.

خلاصة الدّرس

- كان للإمام الحسين عليه السلام بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام نشاط سياسيّ واضح تجاه معاوية، فهو لم ينقض بنود الصلح الّتي أمضاها أخوه الحسن عليه السلام مع معاوية كما نقضها معاوية، ولكنّه بدأ يتحرّك باتّجاه إعداد وتجنيد الطاقات المستعدّة للمعارضة، وابتدأ بمواجهة معاوية بكلّ جرأة وصرامة لأخذه البيعة اللاّمشروعة ليزيد كوليّ للعهد بعده.
- لم يتحرّك الإمام الحسين عليه السلام قبل موت معاوية لأنّه لم يكن مستعدّاً لنقض بنود الصلح الموقّعة في زمن الإمام الحسن عليه السلام بحالٍ من الأحوال. وهو كان ينتظر توفّر كلّ الشروط اللاّزمة للثورة الّتي لم تكن متوفّرة عند استشهاد الإمام الحسن عليه السلام .
- يعـود الدافع الحقيقيّ للثورة الحسينيّة بهـذا الشكل الّذي تحقّق وإن لم يكن فيها مكسب آنيّ من حيـث الوصـول إلى الحكم إلى أنّ إرادة الأمّة كانت قد أصبحـت ميّتة بعد أن عرفت حقيقة خطّ أهل البيت عليهم السلام.

١٤

الدرس الرابع عشر

منهج الإمام الحسين عليه السلام ٢

الدرس الرابع عشر

منهج الإمام الحسين عليه السلام ٢

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى المنهج الحسينيّ في التصدّي للانحرافات.

٢. أن يستذكر العوامل التي أدّت للثورة الحسينيّة.

٣. أن يتبيّن واقع الأمّة ما قبل الثورة.

خيارات الأمام الحسين عليه السلام في التعامل مع يزيد:

وتفصيل ذلك: إنّ الحسين عليه السلام كانت أمامه عدّة حلول ممكنة بعد أن طلب يزيد منه البيعة وهدّده بالقتل إن لم يبايع:

الأوّل: أن يُبايع يزيد.

الثاني: أن يرفض البيعة ويبقى في مكّة أو المدينة، مع علمه بأنّه سيُقتل حينئذ ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة.

الثالث: أن يلجأ إلى بلدٍ من بلاد العالم الإسلاميّ كما اقترح عليه أخوه محمّد ابن الحنفيّة.

الرابع: أن يتحرّك ويذهب إلى الكوفة مستجيباً للرسائل الّتي وردته من أهلها ثمّ يستشهد بالطريقة الّتي وقعت.

وكان اختياره للموقف الرابع قائماً على أساس إدراكه لطبيعة الظرف الّذي يعيشه، فإنّه كان عليه أن يقف موقفاً يعالج فيه عدّة مشاكل في الأمّة الإسلاميّة.

واقع الأمّة ما قبل الثورة الحسينيّة

يُمكن للباحث أن يعرف ظروف وواقع الأمّة الإسلاميّة من خلال بيان أقسام وفئات الأمّة في ذلك الزمن، وهذه الفئات هي:

الأولى: وكانت تُشكّل جزءاً كبيراً من الأمّة، وهي الّتي فقدت خلال عهد معاوية إرادتها وقدرتها على مواجهة الوضع القائم وهي تشعر بالذلّ والاستكانة، وأنّ خسارة كبيرة تحيق بالأمّة الإسلاميّة

وهي تبديل الخلافة إلى كسرويّة وهرقليّة.

الثانيـة: وهـي الّتي هـان عليهـا الإسلام، فلـم تعد تهتـمّ بالرسالة بقـدر اهتمامهـا بمصالحها الشخصيّة، وتضاءلت عندها الرسالة.

الثالثة: وهي الفئة المغفّلة الّتي كان بالإمكان أن تنطلي عليها حيلة بني أميّة لو سكت الإمام الحسين عليه السلام عـن تحويل الخلافة إلى قيصريّة وكسرويّة... فـإنّ الخلافة وإن انحرفت عن خطّها المستقيم منـذ توفّي النبـيّ صلى الله عليه وآله لكن بقي مفهومها هو مفهوم الخلافة، غاية الأمـر اغتصبها أبو بكر ومن ثمّ عمـر وعثمـان. بينما في عهد معاويـة ابن أبي سفيان طرأ علـى نفس المفهوم تغـيّر أساس إذ لم تعد الخلافة حكماً للأمّة، وإنّما حوّلها معاوية إلى حكم ملكي كحكم كسرى وقيصر، وهو تحويل خطير في المفهوم أراد معاوية أن يُلبسه ثوب الشرعيّة.

الرابعة: وهي الّتي ترتبط بقضية الصلح الّذي أبرمه الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، فإنّ الواقع الّـذي مـن أجله صالح الإمـام الحسن عليه السلام لم يكن مكشوفـاً إلّا داخل دائـرة الجماهير الّتي كانت تعيشـ المأسـاة عن قرب كالعراق بشكل عامّ دون من كان يعيش في أطراف العالم الإسلاميّ كأقاصي خراسـان حيث لم يعيشوا المحنة يوماً بعد يوم، ولم يكتووا بالنار الّتي اكتوى بها الإمام الحسن عليه السلام في الكوفـة مـن قواعده وأعدائه معاً. وهذه الفئة لم تكن تميّز هل أنّ هذا التنازل هو اعتراف بشرعيّة الأطروحـة الأمويّة، أم هو تصـرّف اقتضته الضرورة والظروف الموضوعيّة الّتـي كان يعيشها الإمام الحسن عليه السلام؟

فكان لا بدّ للإمام الحسين عليه السلام أن يختار موقفاً يُعالج فيه مشكلة كلّ واحدة من هذه الفئات الأربع من الأمّة، وكان لا بدّ أن يختار الموقف الّذي يُرجع فيه للفئة الأولى إرادتها الّتي فقدتها بسبب الإرهاب الأمـويّ، وإلى الفئة الثانية إيمانها بالرسالة وشعورها بأهميّـة الإسلام، فيختار حينئذٍ الموقف الّذي يشرح فيه - حتّى لمن كان بعيداً عن الأحداث - أنّ تنازل الإمام الحسن عليه السلام لم يكن إمضاءً لعمليّة التحويـل، ويوقظ فيه الفئـة الثالثة من غفلتها ويظهر للفئة الرابعة الواقـع الّذي ألجأ الإمام الحسن عليه السلام إلى الصلح.

تقويم مواقف الفئات الأربع

إنّ تقـويم المواقف الأربعة لهذه الفئات المتقدّمة من حيث قـدرة كلّ منها على تحقيق الأهداف المُشار إليها يمكن بيانه كما يلي:

أمّـا الموقـف الأوّل: وهـو أن يبايع يزيد، فهو لا يحقّق مكسباً علـى مستوى معالجة تلك الفئات من الأمّـة... لأنّ قصّة يزيد لم تكن قصّة أبي بكر وعمـر وعثمان، لأنّ التحويل هنا على مستوى المفهوم، ولم يكـن بالإمـكان أن تمـرّ دون أن يقف أهل البيـت عليهم السلام الّذين هم القادة الحقيقيّـون للأمّة الموقف الدينيّ الواضح المحدّد من عمليّة التغيير هذه.

وأمّا الموقف الثاني: فهو لا يحقّق ذلك المكسب الّذي يريده الحسين عليه السلام أيضاً، وذلك لأنّ الإمام الحسـين عليه السلام كان يؤكـد أنّه لو بقي في المدينة أو في مكّة رافضاً البيعـة لقُتل من قِبل بني أميّة حتّى ولـو كان معلّقاً بأستار الكعبـة، وهذا القتل لن يُحرِّك المسلمين تجاه رسالتهـم ودينهم. وإرجاع الأمّة إلى دينهـا وعقيدتهـا لا يمكن أن يتحقّق من خلال قتـلٍ عابرٍ سهل من هذا القبيل، بل لا بدّ أن تُحشد له كلّ المثيرات والمحرِّكات.

وأمّا الموقف الثالث: فهو وإن كان أسلم من الأوّل والثاني على المدى القصير إذ يمكنه أن يعتصم بشيعتـه في اليمـن مثلاً إلى برهـةٍ معينة لكنّه سوف ينعـزل، ويحيط نفسه بإطـار منغلق عن مسرح الأحداث بينما لا بدّ أن يباشر عمله التغييريّ على مسرح الأحداث الّذي كان وقتئذٍ هو الشام والعراق ومكّة والمدينة كي يمكن لهذا العمل أن يؤثّر تربويّاً وروحيّاً وأخلاقيّاً في كلّ العالم الإسلاميّ.

وعليـه كان لا بدّ للإمـام الحسين عليه السلام أن يختار الموقف الرابع الّذي استطاع أن يهزّ به ضمير الأمّة مـن ناحية، ويشعرها بأهميّة الإسلام وكرامة هذا الدِّيـن من ناحية ثانية، وأن يدحض عمليّة تحويل الخلافـة إلى كسرويّة وقيصريّة مـن ناحية ثالثة، وأن يوضّح لكلّ المسلمين مفهوم الصلح عند الإمام الحسن عليه السلام وأنّه لم يكن موقفاً إمضائيّاً وإنّما كان أسلوباً تمهيديّاً لموقفه عليه السلام .

ومـن أجـل هذا كلّه كانت الثورة الحسينيّة الّتي استطاع مـن خلالها الإمام الحسين عليه السلام أن يفضح المخطّطـات الأمويّة، ويحطّم الإطار الدينيّ المزيّف الّذي أحاطوا به سلطانهم، ويحرّك مشاعر الأمّة الإسلاميّة لتعود إلى دينها وعقيدتها وتشعر بتقصيرها الفادح تجاه رسالة محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

خلاصة الدّرس

- لم يكـن أيّ إجـراء بقـادرٍ على تحريـك ضميرها إلّا الشهـادة والتضحية الّتـي تغرس في أعماق وجودهـا عظمـة الدِّين ورخص النفس والحيـاة الماديّة بالنسبة إلى ديـن الله الّذي جاء بكرامة الإنسان واستهدف إيصاله إلى الكمال اللائق به.

١٥

الدرس الخامس عشر

الثورة الحسينيّة: المقوِّمات والنتائج

الدرس الخامس عشر

الثورة الحسينيّة: المقوِّمات والنتائج

أهداف الدرس:

١. أن يستذكر الطالب مقوّمات الثورة الحسينيّة.

٢. أن يعدّد نتائج الثورة وآثارها.

٣. أن يتعرّف إلى ثورات ما بعد كربلاء.

مقوّمات الثورة الحسينيّة:

ثار الإمام الحسين عليه السلام ليكشف للأمّة الوجه الحقيقيّ للحكّام الّذين يحكمون باسم الدِّين، وليفضح للمسلمين حقيقة الطواغيت الّذين حكموا الناس باسم خلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وكانت واقعة الطفّ صورة متكاملة للصراع بين الحقّ والباطل، ففيها المعصوم الّذي لا يُخطئ، والمجرم الّذي لا يتورّع عن فعل أدنى الأفعال وأبشعها. في معسكر الإمام الحسين عليه السلام المرأة والطفل الرضيع والصبيّ والشيخ العجوز وكلّ مظاهر السموّ والرفعة بخلاف المعسكر المقابل.

وجاءت واقعة الطفّ كقضيّة مأساويّة مثيرة للأشجان، لتحرِّك في الأمّة ضميرها وتعيدها نحو رسالتها وتبعث شخصيّتها العقائديّة من جديد. وكان من اللازم أن يقوم بهذا الدور مجموعة من الناس تمتلك قدرات ومقوّمات تجعل دورها فاعلاً ومؤثّراً في حياة هذه الأمّة الميتة،
وكان أهمّ هذه المقوّمات - الّتي اجتمعت في ثورة الإمام الحسين عليه السلام - ما يلي:

١. المقوّمات الشخصيّة للثائر

فالثائر الّذي يقود جبهة الحقّ كان إماما معصوماً يمتلك كلّ المواصفات القدسيّة بنصّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ما كانت تدركه الأمّة، خصوصاً مع وجود عدد غير قليل من الصحابة الّذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسمعوا منه تلك الأحاديث بشأن الإمام عليه السلام.

٢. قيام الحجّة

لكي لا تكون الثورة هامشيّة، فلا تعطي ثمرتها المرجوّة، فقد كان الثائر يمتلك الوثائق الكفيلة بإضفاء المشروعيّة على هذه الثورة، وأنّها الحلّ الوحيد والخيار الّذي لا بديل له. فقد كانت رسائل زعماء العراق إلى الإمام عليه السلام تطلب منه القدوم بإلحاح، كقولهم: «أمّا بعد، فقد اخضرّ الجناب وأينعت الثمار فإذا شئت فأقبل على جندٍ لك مجنّدة».

ولا شكّ أنّ عدم تلبية الإمام عليه السلام لهذه الطلبات سيُلزمه عليه السلام الحجّة في تفويت الفرصة، وبالعكس فإنّ المجيء سيُلزم الأمّة الحجّة إن هي خانت.

وكذلك الحال بالنسبة إلى التهديد الأمويّ للإمام عليه السلام إن لم يبايع، ولو بايع فإنّه في مثل هذه الحالة سيُعطي الوثيقة الشرعيّة للحكّام الأمويّين.

٣. الشعار

ولكي لا تشوّه هذه الثورة ـ خصوصاً وأنّ الإمام عليه السلام قد علم بخيانة أهل الكوفة ـ أعلن الإمام عليه السلام عن أهدافها وطرح شعاراتها ابتداءً من المدينة حتّى يوم الملحمة الكربلائيّة. ثمّ إنّه وضع الأمّة أمام الخيارات الّتي لا مناص منها ليجعل من ثورته الأسلوب الوحيد أمام التحدّيات الكافرة.

٤. المقوّم العاطفيّ

أي عمليّة إثارة المشاعر في نفوس المسلمين الّذين لم تحرِّك الأفكار المنطقيّة عقولهم.

ويُلاحظ المقوّم العاطفي لهذه الثورة من خلال أسلوبين:

أوّلهما: إشراك العقائل من الهاشميّات في الثورة بالإضافة إلى الأطفال، ممّا أثار في النفوس العطف وفي القلوب الانكسار مهما كانت تلك النفوس متوحّشة والقلوب قاسية.

ثانيهما: هو أسلوب التذكير والوعظ الّذي استخدمه الإمام وصحبه، فلقد ذكّر الإمام القوم بقوله: «انسبوني من أنا، ألست ابن بنت نبيِّكم؟» ثمّ يقول: «لِمَ تحاربونني، ألسنّةٍ غيّرتها أم لبدعةٍ ابتدعتها؟».

نتائج الثورة وآثارها

إذا أردنا أن نعرف مدى نجاح الإمام الحسين عليه السلام في تحقيق أهدافه فإنّنا نلمس انتصاره في يوم

عاشوراء نفسه حيث استطاع أن يستقطب جمعاً ممّن خرج لقتاله وانضوى تحت لواء الجيش الأمويّ، وتوالت الاستجابة لنداء الإمام الحسين عليه السلام بعد عاشوراء حيث استطاعت هذه النهضة أن تُزلزل عروش الظالمين وتُسقط عنهم كلّ الأقنعة أوّلاً ثمّ تؤدّي بهم إلى الانهيار والزوال.

ولم يستطع الحكم العبّاسيّ الغاشم أيضاً أن يتخلّص من شرر هذه الثورة المقدّسة. وأصبحت الثورة على الظلم هي الشعار الأوّل لأهل البيت عليهم السلام وأتباعهم ومحبّيهم، واستطاع المسلمون أن يصمدوا بوجه الاستعمار الصليبيّ الّذي عمّ العالم الإسلاميّ بعد سقوط الخلافة العثمانيّة. وما الثورة الإسلاميّة في إيران إلّا أثرٌ واحدٌ من آثار تلك النهضة المقدّسة. وعلى الرغم من ذلك فإنّ هذا لم يمنع الكثير من المؤرّخين والحاقدين من اتّهام الثورة الحسينيّة بالفشل، بحجّة أنّها لم تحقّق نصراً سياسيّاً آنيّاً يطوّر الواقع الإسلاميّ إلى حالٍ أحسن ممّا كان عليه قبل هذه الثورة.

ولكي نفهم ثورة الحسين عليه السلام علينا أن نفتّش عن أهدافها ونتائجها في غير النصر الآنيّ الحاسم، وفي غير الاستيلاء على مقاليد الحكم، وأن لا نبحث فيما تعوّدناه في سائر الثورات، وإنّما نلتمس نتائجها في الميادين التالية:

١. تحطيم الإطار الدينيّ المزيّف: الّذي كان الأمويّون وأعوانهم يحيطون به سلطانهم، وفضح الروح اللادينيّة الجاهليّة الّتي كانت أطروحة الحكم آنذاك، وخاصّة بعد أن شاعت هذه الروح في جميع طبقات المجتمع، وكان الإمام عليه السلام هو الشخص الوحيد الّذي يملك رصيداً من المحبّة والإجلال والقادر على فضح الحكّام وكشف حقائقهم.

٢. الشعور بالإثم: أثار استشهاد الإمام الحسين عليه السلام موجة عنيفة من الشعور بالإثم في ضمير كلّ مسلم استطاع نصره فلم ينصره، خصوصاً أولئك الّذي كفّوا أيديهم عن نصره بعد أن عاهدوه على الثورة.

وقد قُدِّر لهذا الشعور بالإثم أن يبقى مشتعلاً في النفوس وحافزاً دائماً على الثورة والانتقام، وقدّر له أن يدفع الناس إلى الثورات على الأمويّين كلّما سنحت الفرصة لهم.

٣. الأخلاق الجديدة: كان لا بدّ لثورة الإمام الحسين عليه السلام من أن تدعو إلى نموذج من الأخلاق أسمى ممّا يُمارسه المجتمع وأن تغيّر نظرة الإنسان إلى الحياة وإلى نفسه وإلى الآخرين، ليمكن إصلاح المجتمع.

ولقد قدّم الإمام الحسين عليه السلام وآله وأصحابهم - في ثورتهم على الأمويّين - الأخلاق والقيم الإسلاميّة العالية بكلّ صفائها ونقائها، ولم يقدّموا إلى المجتمع الإسلاميّ هذا اللون من الأخلاق بألسنتهم، وإنّما كتبوه بدمائهم وحياتهم.

لقد اعتاد الرجل العاديّ إذ ذاك أن يرى الزعيم القبليّ أو الدينيّ يبيع ضميره بالمال، وبعرَض من الحياة الدنيا، وأن يرى الهامات تنحني خضوعاً لطاغية حقير... وأصبح همّ المسلم دُنياه وحياته الخاصّة، يعمل لها ويكدح في سبيلها ولا يفكّر إلّا فيها.

أمّا أصحاب الإمام الحسين عليه السلام فقد كان لهم شأن آخر حتّى قال فيهم عليه السلام: "... أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي".

٤. انبعاث الروح الجهاديّة: كانت النهضة الحسينيّة السبب في انبعاث الروح الجهاديّة في الإنسان المسلم من جديد بعد فترة طويلة من الخمود أو الخنوع والتسليم، فقد حُطّمت كلّ الحواجز النفسيّة والاجتماعيّة الّتي حالت دون الثورة.

فواقع الإنسان المسلم كان يدعوه إلى الاستسلام والمساومة والدعة، فجاءت ثورة الإمام الحسين عليه السلام، وقدّمت للإنسان المسلم أخلاقاً جديدة لتقول له: لا تستسلم، لا تساوم على إنسانيّتك، ناضل قوى الشرّ ما وسعك، ضحّ بكلّ شيء في سبيل مبدئك.

ونلاحظ انبعاث الروح الجهاديّة في الأمّة بعد الثورة في كلّ الثورات الّتي حملت شعار الثأر لدم الإمام الحسين عليه السلام والّتي جاءت صدى لثورته، وكذلك في ردود الفعل الّتي بدأت بالظهور مع دخول السبايا إلى الكوفة. فبالرغم من القمع والإرهاب اللذين مارسهما ابن زياد مع كلّ من كان يُبدي أدنى معارضة ليزيد فإنّ أصواتاً بدأت ترتفع محتجّةً على الظلم السائد.

وظهرت في الشام أيضاً بوادر السخط والاستياء، الأمر الّذي جعل يزيد ينحو باللّائمة في قتل الإمام الحسين عليه السلام على ابن زياد.

إلّا أنّ أشدّ ردود الفعل كانت تلك الّتي برزت في الحجاز، حيث انتقل عبد الله بن الزبير إلى مكّة واتّخذها قاعدة لمعارضته للشام، وقام بتوظيف فاجعة كربلاء للتنديد بنظام يزيد.

الإمام السجّاد عليه السلام وإكمال مسيرة النهضة

ذكـر المؤرّخون أنّ موكب السبايا سار به ابن سعد، مـن كربلاء إلى الكوفة، وعلى رأس الموكب الإمام علـيّ بن الحسـين عليه السلام الّذي استطاع أن يواجه القتلة والمجرمين ويقف متحدّياً جبروتهم وطغيانهم كمـا حصـل في المواجهة بينـه عليه السلام وبين ابن زيـاد والّتي قـال في نهايتها الإمـام عليه السلام: "أبالقتل تهـدّدني يا بن زيـاد؟ أما علمت أنّ القتل لنا عـادة وكرامتنا من الله الشهـادة؟"[1]. فأمر ابن زياد بنسـاء الإمـام الحسين عليه السلام وصبيانه وبالإمام علـيّ بن الحسين عليهما السلام ثمّ سرّح بهـم في إثر الرؤوس وحملهـم على الأقتاب، وساروا بهم إلى الشام، تلـك المدينة الّتي خضعت منذ فتحها بأيدي المسلمين لحـكّام مثل خالد بن الوليد ومعاوية بن أبي سفيان، فلـم يشاهد الشاميون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يسمعوا حديثـه الشريف منه مباشـرة، ولم يطّلعوا على سيرة أصحابه عن كثب. أمّا النفر القليل من صحابة النبـي صلى الله عليه وآله وسلم الّذيـن انتقلـوا إلى الشام وأقاموا فيها فلم يكن لهم أثـر في الناس بقدر ما كان يقوم به معاوية من دور لتمثيل الإسلام ورسم معالمه كما يحلو له لدى الشاميّين.

لـذا كان علـى الإمام السجّاد عليه السلام أن يقوم بتعريف أهل الشام إلى ما جرى في كربلاء، وإلى حقيقة أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الّذين سُفكت دماؤهم في الطّف، وإلى السبايا من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم الّذين عندما دخلـوا الشام اعتقد أهلهـا أنّهم من الخارجين على الإسلام. وليـس أدلّ على ذلك من تلك الحادثة الّتـي اقـترب فيها شيخ شاميّ مـن الإمام السجّاد قائـلاً له: الحمد لله الّذي أهلككـم وأمكن الأمير منكـم، فجـرى حوار بينهما كانت نهايته أن بكى ذلك الشيخ ورمـى عمامته ثمّ رفع رأسه إلى السماء وقال: "اللّهم إني أبرأ إليك من عدوّ آل محمّد".

وحـين استقبل إبراهيم بن طلحة الإمام السجّـاد عليه السلام قال: يا عليّ بن الحسين، من غلب؟ والإمام عليه السلام مغـطٍّ رأسه وهو في المحمل، فقال لـه عليه السلام: «إذا أردت أن تعلم من غلب، ودخل وقت الصلاة فأذّن ثمّ أقِم»[2].

لقـد كان جواب الإمام عليه السلام: إنّ الصراع إنّما هو علـى الأذان وتكبير الله تعالى والإقرار بوحدانيّته والإقـرار بنبـوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وليس على الرئاسة، وإنّ استشهـاد الإمام الحسين عليه السلام والصفوة من

(١) أعيان الشيعة، السيّد محسن الأمين: ١٤٦/٤، دار التعارف، بيروت، ط ٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

(٢) أمالي الطوسي، أبو جعفر، محمّد بن الحسن: ٦٧٧، تحقيق مؤسسة البعثة، دار الثقافة، قم، ط١، ١٤١٤هـ.

أهـل بيته وأصحابه هو سبب بقاء الإسلام المحمّديّ وثباتـه أمام جاهليّة بني أميّة ومن حذا حذوهم ممّن لم يذوقوا حلاوة الإيمان والتسليم لشريعة الله سبحانه.

هـذا بالإضافة إلى المواجهة العنيفة في ذلك الحوار الّذي جـرى بين الإمام السجّاد عليه السلام والطاغية يزيـد عندمـا أدخلوا عليه في قصره رأس الإمام الحسين عليه السلام ونساءه وأهـل بيته وهم مقرّنون في الحبـال والإمام زين العابدين عليه السلام مغلول، وفي ذلك المجلس وأمام أهل الشام وبفضل بيان الإمام السجّـاد عليه السلام وكلماتـه تبيّن للناس أنّ بني أميّة غارقـون في الإثم، وأنّ الحكـم الأمويّ قد جهد في إغوائهم وإضلالهم.

الثورات بعد كربلاء

كان من نتائج النهضة الحسينيّة - كما ذكرنا - انبعاث الروح الجهاديّة في الأمّة، وبدأت الأمّة ترقب زعيماً يقودها. وكلّما وُجد القائد وُجدت الثورة على الظلم الأمويّ. هذا فضلاً عن الدور الّذي قام به الإمام السجّاد عليه السلام والسيّدة زينب عليها السلام في تعريف وبيان حقيقة ما جرى بعد أن أوهم الحكم الأمويّ الأمّـة الإسلاميّـة - خصوصاً في الشام - أنّ أصحـاب الثورة هم من الخارجين عن طاعة الأمير وما شاكل ذلك.

فالثورة وتحرّكات الإمام السجّاد عليه السلام كان لهما الصدى الكبير في إشعال الروح الجهاديّة لدى الأمّة الّتـي أطلقـت العديد من الثورات الّتي حملت شعار الثـأر لدم الإمام الحسين عليه السلام ، ونذكر من هذه الثورات:

١. ثورة أهل المدينة

أراد عثمـان بـن محمّد بن أبي سفيـان أن يكسب رضا أهل المدينة فأرسل وفـداً من أبناء المهاجرين والأنصار إلى دمشق ليشاهدوا الخليفة وينالوا نصيبهم من هداياه. إلّا أنّ الوفد رأى من سلوك يزيد ما يشين ويقبح.

ولمّـا رجعـوا إلى المدينة أظهـروا شتم يزيد وعيبه، وقال عبد الله بن حنظلـة (غسيل الملائكة): لو لم أجـد إلّا بنـيّ هؤلاء لجاهدته بهم... فخلع الناس يزيد وبايعـوا عبد الله بن حنظلة وولّوه عليهم[٣].

(٣) الكامل في التاريخ، م.س/٤/٣.

كما أنّهم أخرجوا عامل يزيد على المدينة وحاصروا بني أميّة وأتباعهم.

ولمّا بلغ أمر الثورة إلى مسامع يزيد أرسل مسلم بن عقبة - السفّاك - ليقضي على ثورة أهل المدينة. وبعد قتالٍ عنيف مع أهلها قُتِل فيه أغلب الثوّار ومنهم عبد الله بن حنظلة ومجموعة من صحابة رسول الله ﷺ نفّذ قائد الجيش أوامر يزيد باستباحة المدينة، فهجم الجند على البيوت وقتلوا الأطفال والشيوخ واستباحوا النساء.

قال ابن كثير: "... ووقعوا على النساء حتّى قيل إنّه حبلت ألف امرأة في تلك الأيّام من غير زوج"[١].

وذكر المؤرّخون أنّ الإمام السجّاد عليه السلام كفل في واقعة الحرّة أربعمائة أسرة من عبد مناف، وظلّ ينفق عليها حتّى خروج جيش ابن عقبة من المدينة.

٢. ثورة ابن الزبير وثورة التوّابين

صعّد عبد الله بن الزبير بعد واقعة كربلاء معارضته للأمويّين ودعا الحجازيّين لمبايعته، فاستجابت له الأكثريّة الساحقة منهم. وشهد العراق أيضاً تحرّكاً جديداً بعد الندم الّذي أخذ يقضّ مضاجع الكوفيّين نتيجة شعورهم بالإثم إذ خذلوا الإمام الحسين عليه السلام، وتركوا نصرته بعد أن استدعوه بكتبهم إلى الكوفة. فرأوا أن يغسلوا عارهم بالانتقام من قتلته عليه السلام فكانت ثورتهم سنة ٦٥ للهجرة.

٣. ثورة المختار

استنهض المختار ابن أبي عبيدة الثقفيّ أهل العراق لأخذ الثأر من قتلة الإمام الحسين عليه السلام، وبدأ بإعداد الشيعة للثورة بعد فشل ثورة التوّابين، وكاتب الإمام السجّاد عليه السلام الّذي لم يُعلن عن تأييده الصريح له، لكنّه عليه السلام أمضى عمله عندما ثأر من قتلة أبيه الإمام الحسين عليه السلام.

وأرسل المختار رأسي عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد إلى الإمام عليه السلام فسجد عليه السلام شكراً لله تعالى وقال: "الحمد لله الّذي أدرك لي ثأري من أعدائي وجزى الله المختار خيراً"[٢].

ويقول بعض المؤرّخين: إنّ الإمام زين العابدين عليه السلام لم يُرَ ضاحكاً منذ أنّ استشهد أبوه إلّا في اليوم الّذي رأى فيه رأس ابن مرجانة.

---

(١) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق علي شيري: ٨/ ٢٢٠، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

(٢) بحار الأنوار، م. س: ٤٥/ ٣٨٦.

هـذه نماذج من الثـورات الّتي تأثّرت بوضوح بروح الثورة الّتي بثّهـا الإمام الحسين عليه السلام في الشعب المسلـم، والّتي استمرّت طيلة الحكم الأمويّ، حتّـى قضت عليه بثورة العبّاسيّين، والّتي لم تكن لتنجح لو لم تعتمد على إيحاءات ثورة الإمام الحسين عليه السلام واستغلالها لشعار "الرضا من آل البيت عليهم السلام".

انهيار الحكم السفياني وانشقاق البيت الأمويّ

هلـك يزيـد في ربيع الأوّل من سنــة ٦٤ هجريّة وهـو في الثامنة والثلاثين من عمـره. وكانت صحيفة أعمالـه في مدّة حكمه - الّـذي استمرّ ثلاث سنوات وبضعة أشهر- سـوداء بسبب قتله ابن بنت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأسـر أهـل بيـت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السنــة الأولى، والقتـل الجماعيّ لأهل المدينــة في السنة الثانية، وهدم الكعبة في السنة الثالثة من حكمه.

ثـمّ بايـع أهل الشام ولـده معاوية، إلّا أنّ حكمـه لم يستمرّ أكثر من أربعين يومـاً، إذ أعلن تنازله عن العرش، ومات بعدها في ظروف غامضة حتّى قيل إنّه مات مسموماً.

<u>**فانشقّت القيادة المؤيّدة لبني أميّة على نفسها إلى كتلتين:**</u>

- كتلة أيّدت زعامة مروان بن الحكم، وقد مثّل هذا الاتجاه القبائل اليمانيّة، بقيادة حسّان الكلبيّ.
- بينما أيّدت قوى القيسيّين بقيادة الضحّاك بن قيس الفهري، عبد الله بن الزبير.

وإبّـان خلافة يزيد القصيرة امتـدّت أيدي الكلبيّـين تدريجيّاً إلى مراكز السلطـة فمارسوا ضغوطاً شديـدة علـى القيسيّين، الأمر الّذي أزعج الضحّاك كثيراً فانتهـز الفرصة بعد موت يزيد ليبايع ابن الزبـير، واشتبك الكلبيّـون والقيسيّون في "مرج راهط"[٣] في معركة أسفرت عن انتصار الكلبيّين، فأصبح مروان بن الحكم خليفة، واستقرّت الأوضاع المضطربة في الشام نسبيّاً.

(٣) منطقة في شرق دمشق.

خلاصة الدرس

- تقوّمت ثورة الإمام الحسين عليه السلام بقائد جعله الله إماماً للمسلمين بنصّ من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وكان يمتلك كلّ الأدلّة الكفيلة بإثبات مشروعيّة ثورته.
- كانت الشعارات الّتي رفعها الإمام منذ بداية حركته صريحة واضحة، بحيث لا تقبل التشويه والتزييف على مدى العصور.
- كان من نتائج هذه الثورة الّتي كان رائدها الحقّ وعدل السماء:
  1. تحطيم الإطار المزيّف الّذي كان الأمويّون يحيطون به سلطانهم.
  2. أثارت موجة عنيفة من الشعور بالإثم في ضمير كلّ مسلم لم ينصر الإمام الحسين عليه السلام.
  3. بعثت نموذجاً من الأخلاق أسمى ممّا يمارسه المجتمع.
  4. بعثت الروح الجهاديّة في الإنسان المسلم من جديد.
- أكمل الإمام السجّاد عليه السلام مسيرة الثورة وفضح بني أميّة خلال تنقّل موكب السبايا من الكوفة إلى الشام
- كان من نتائج الثورة الحسينية حصول العديد من الثورات بعدها، ومنها: ثورة أهل المدينة، وثورة التوّابين، وثورة المختار.
- انهيار الحكم السفيانيّ مع موت يزيد سنة ٦٤ هجرية، بعد أن ترك صحيفة سوداء من الأعمال السيّئة الّتي مارسها خلال حياته.

١٦

الدرس السادس عشر

عصر الإمام زين العابدين عليه السلام

الدرس السادس عشر

عصر الإمام زين العابدين عليه السلام

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى حالة المجتمع أيّام الإمام زين العابدين عليه السلام.

٢. أن يتبيّن ما قام به الإمام السجّاد عليه السلام لمواجهة التحدّيات.

٣. أن يعدّد أبرز ما قام به الإمام عليه السلام على صعيد التبليغ والمواجهة.

الإمام السجّاد عليه السلام وانحراف الحكّام

في نظرةٍ سريعة إلى عصر الإمام زين العابدين عليه السلام، بدءاً باستلامه لمهامّ الإمامة بعد استشهاد أبيه عليه السلام في العاشر من المحرّم سنة ٦١ للهجرة، نلاحظ معاصرته لحكومة يزيد الّتي انتهت بهلاكه عام ٦٤ هجريّة ثمّ حكومة مروان البالغة تسعة أشهر في الشام وحكومة ابن الزبير في مكّة، حيث بويع لعبد الملك بن مروان بعد هلاك أبيه عام ٦٥ هجرية. وقد استمرّ التنافس بين ابن الزبير وعبد الملك حتّى عام ٧٣ هجريّة حيث قُتل ابن الزبير وخلا كرسيّ الحكم لعبد الملك حتّى سنة ٨٦ هجريّة، ثمّ بويع للوليد بعد هلاك عبد الملك، واستمرّ حكمه حتّى استشهاد الإمام زين العابدين عليه السلام سنة ٩٤ أو ٩٥ هجريّة.

إذاً، فترة حكم عبد الملك هي أطول فترة عاصرها الإمام عليه السلام، حيث تبلغ عقدين من الزمن تقريباً. وقد اجتمعت في هذا العصر عدّة عوامل لانهيار الحزب الأمويّ الحاكم. ولكنّا نلاحظ استمرار الأمويّين في الحكم حتّى عام ١٣٢ هجريّة. فما هي الأسباب الّتي أدّت إلى دوام هذا الحكم الجاهليّ المنحرف بالرغم من توفّر عناصر الهدم والانهيار؟

هنا لا بدّ أن ندرس كلّاً من عوامل الانهيار وعوامل الدوام، ثمّ نقارن بين المجموعتين لنرى الأسباب الواقعيّة الّتي وقفت وراء استمرار الحكم الأمويّ لمدّة تناهز سبعة عقود بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام. ومن خلالها نقف على طبيعة الظروف الدينيّة والثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة الّتي اتّصف بها عصر الإمام زين العابدين عليه السلام.

عوامل انهيار الحكم الأمويّ زمن السجّاد عليه السلام:

١. ثورة الإمام الحسين عليه السلام

استطاعت الثورة الحسينيّة كشف زيف الأقنعة الدينيّة الّتي كان يتقنّع بها الحكم الأمويّ الجاهليّ. واتضّح لكلّ القطاعات زيف الشعارات الدينيّة الّتي يرفعها الحكّام. وانكشف للغافلين أيضاً أنّ الإمام الحسين عليه السلام لو كان طالب ملك لكان بايع يزيد أوّلاً ثمّ كان لينتهز الفرصة ويستخدم أنواع الأساليب الملتوية للتسلّق إلى الحكم ثانياً.

وقد أحيت الملحمة الحسينيّة في سنة ٦١هـ روح الإباء والعزّة والكرامة لدى المسلمين. وتجلّت هذه الحقيقة في المعارضة الدمويّة المستمرّة الّتي تمثّلت في الثورات المتتالية حتّى إسقاط الحكم الأمويّ وتصفيته سنة ١٣٢هـ.

٢. حركة الإمام السجّاد عليه السلام وعقائل الرسالة

لقد كانت خُطب الإمام زين العابدين عليه السلام وعمّته السيّدة زينب عليها السلام في كربلاء والكوفة والشام والمدينة - أهمّ حواضر العالم الإسلاميّ - تشكّل الدور الثاني والمكمّل للثورة الحسينيّة، لأنّه لولا هذه الخطب الفاضحة للحكم الأمويّ والمفسّرة لأبعاد ومعالم الثورة الحسينيّة والكاشفة عن حقيقتها لكانت شعارات الأمويّين المضلّلة قضت على أهداف هذه الثورة العظيمة.

٣. انهيار الحكم السفيانيّ وانشقاق البيت الأمويّ

هلك يزيد سنة ٦٤هـ بعد أن ارتكب الفضائح العظام الّتي تمثّلت أوّلاً بقتله للإمام الحسين عليه السلام ثمّ استباحته لمدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقتل الصحابة والتابعين فيها سنة ٦٢هـ. ثمّ هدمه الكعبة واستباحتها سنة ٦٣هـ.

ولم يكن ابنه معاوية على استعداد لأن يتحمّل وِزر بني أميّة في اغتصاب منصب الخلافة، فلم يستخلف أحداً، وأدان معاوية الأوّل وأباه يزيد بن معاوية. وبهذا انهار الحكم السفياني. وكاد أن يتبعه الأمويّ لولا تدارك مروان بن الحكم للأمر وتخطيطه لاستلام الخلافة في هذا الظرف المضطرب بعد موت معاوية بن يزيد حيث بايع لابنه عبد الملك، وحاول السيطرة على مصر والشام وهكذا أخذ البيت الأمويّ بالانشقاق والتصدّع.

ولعلّ مسارعة آل مروان إلى الوثوب على الملك بعد آل أبي سفيان كانت تدبيراً هدفه امتصاص النقمة

بعد جريمة الطفّ لإطالة عمر الدولة الأمويّة. وقد يجد الباحث في كلمات المروانيّين ما يلمّح إلى ذلك إضافة إلى ظروف وفاة معاوية بن يزيد...

عوامل استمرار الحكم الأمويّ:

استفاد الأمويّون المروانيّون من تجربة يزيد الفاشلة، والّتي أبادت حكومته بسبب هتكه لحرمات الشريعة وتنكيله بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، بالإضافة إلى انكشاف حقيقة الحكم الأمويّ الجاهليّ بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام.

ومن هنا كان لا بدّ للأمويّين من المقاومة أمام هذين العنصرين المؤدّيين إلى الانهيار، ولذا عملوا نحو تحقيق غطاء شرعيّ ولو مزيّف ليستند إليه الحكم، وكذلك إضعاف عنصر الحماس والجهاد بين أبناء المجتمع، وإليك صورة موجزة عن كلّ واحد من هذه الأسباب:

أ. الغطاء الشرعيّ للحكم المنحرف

يتمثّل الغطاء الشرعيّ في مفردتين أساسيّتين:

١. **وعّاظ السلاطين:** استخدم الحكم الأمويّ بعض العلماء للتعاون معهم وتوجيه خططه وسلوكه مثل محمّد بن مسلم بن شهاب (الزهريّ) والشعبيّ.

وكان لارتباط مثل هؤلاء بالسلطة دور إيجابيّ في إسباغ الطابع الشرعيّ على الحكم القائم.

٢. **مفاهيم عقائديّة ودينيّة خاطئة:** مثل مفاهيم الجبر وحرمة الخروج على الحاكم المسلم وإسباغ طابع القدسيّة على الحاكم والسلطان وحرمة ترك الجماعة...

ب. عدم التعرّض المباشر والصريح لأهل البيت عليهم السلام

استعمل عبد الملك بن مروان سياسة مرنة تجاه الإمام زين العابدين عليه السلام والهاشميّين من جهة بينما شدّد على أتباعهم من جهة أخرى وذلك امتصاصاً للنقمة ضدّ حكمه.

وقد أرسل عبد الملك إلى الحَجّاج كتاباً جاء فيه: "أمّا بعد، فانظر دماء بني عبد المطّلب فاحتقنها واجتنبها فإنّي رأيت آل أبي سفيان لمّا ولغوا فيها لم يلبثوا إلّا قليلاً".

ج. تفتيت جبهة المعارضة

وذلك من خلال عدّة وسائل وقنوات منها:

١. الرقابة التامّة والضغط الشديد الموجّه إلى مراكز التحرّك مثل الكوفة والمدينة، وهي مراكز الولاء لآل البيت عليهم السلام.

٢. الضغط الاقتصاديّ وسياسة التجويع، فقد سلّط عبد الملك الحَجّاج على شيعة آل البيت عليهم السلام فقتلهم شرّ قتلة وأخذهم بكلّ ظِنّة وتهمة حتّى أنّ الرجل كان أحبّ إليه أن يقال له زنديق أو كافر من أن يقال له شيعة عليّ عليه السلام.

وهكذا استطاع الحكّام المنحرفون بالرغم من توفّر عوامل الانهيار أن يستمرّوا في الحكم أكثر من سبعة عقود، حتّى تغلّبت عناصر الهدم على عناصر البناء واستطاع أئمّة أهل البيت عليهم السلام أن يزيلوا الغطاء الشرعيّ الّذي اصطنعه الظالمون لأنفسهم، من خلال تعرية الوعّاظ أمام الناس والردّ على المفاهيم الدينيّة الخاطئة وتقوية شيعتهم ثقافيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً، حتّى بلغ الأمر أن يتّجه العبّاسيّون لاستلام السلطة تحت شعار الدفاع عن مظلوميّة أهل البيت عليهم السلام وكسب رضاهم، وفي هذا دلالة واضحة على عظمة الدور الّذي قام به الأئمّة المعصومون عليهم السلام.

معالم التخطيط في سيرة الإمام السجّاد عليه السلام

كانت المهامّ الأساس لأهل بيت الرسالة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هي صيانة الرسالة والأمّة والدولة الإسلاميّة من الضياع. وهذا ما يكشف عظمة الدور الّذي قام به أهل البيت عليهم السلام في الظروف الحرجة. ولولا صبرهم وجهادهم لما اندحر الباطل القابع تحت ستار الشعارات الإسلاميّة البرّاقة. وكذلك لولا الحكمة والتخطيط الدقيق لما حصلت هذه النتائج الباهرة.

وإذا استطعنا أن نصنّف سلوك أهل البيت عليهم السلام لمعالجة الانحراف الّذي أصاب المجتمع والدولة والشريعة، فإنّنا سوف نلاحظ نوعاً من المرحليّة في العلاج المستمرّ، إلى جانب نوع من العلاج المشترك الّذي التزم به كلّ الأئمّة عليهم السلام وعلى طول الخطّ الجهاديّ الّذي قطعوه خلال ثلاثة قرون تقريباً.

وكانت المرحلة الأولى من العلاج، حين كان الانحراف طافياً على السطح، لم يأخذ طريقه باتّجاه الأعماق والجذور. وتتمثّل هذه المرحلة في كشف الانحراف وبيان مصاديقه. وكان يكفي بيان أحقّية أهل البيت عليهم السلام بالخلافة وعدم شرعيّة المتربّعين على كرسيّها. وتجسّد هذا العلاج في سيرة الأئمّة

الأربعــة، علــيّ بن أبــي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والحســن والحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، والمقطــع الأوّل من حيــاة الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ .

ولكــن بعد تجــذّر الانحراف واتّســاع دائرته من خــلال استمراريّة الحكم المنحــرف، وتسلّح الحكّام بالغطاء الشرعيّ المزيّف، كان لا بدّ لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من تخطيط يتناسب مع هذه المرحلة. وبداية هذه المرحلة هي العقود الثلاثة الأخيرة من حياة الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والّتي كانت بعد زوال الحكم السفيانيّ وبداية استفحال الحكم المروانيّ الّذي عمل أيضاً على إيجاد غطاء شرعيّ يقبع تحته. وقد قــام بعضــ أهل العلم من رواة وفقهــاء العامّة ـ وممّن عُرفوا فيما بعد بوعّــاظ السلاطين ـ بدور مهمّ لإيجاد هذا الغطاء الشرعيّ في نظر عامّة المسلمين، وحقّقوا بذلك غرضين كبيرين هما:

الأوّل: منح الشرعيّة للحاكمين.

الثاني: محاولة عزل أبناء الأمّة الإسلاميّة عن مدرسة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

خلاصة الدرس

- اتّســم عصــر الإمــام عليّ بن الحســين عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ والّذي أعقب موجــة الفتــح الأولى ـ بانفتاح الأمّة الإسلاميّة

علــى سائــر الشعوب ممّــا أدّى إلى أن تواجه خطرين كبيريــن: خطر المسخ الثقــافيّ وخطر الانهيار الأخلاقيّ.

١٧

الدرس السابع عشر

منهجية الإمام السجاد عليه السلام

الدرس السابع عشر

منهجية الإمام السجاد عليه السلام

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى حالة المجتمع أيّام الإمام زين العابدين عليه السلام .

٢. أن يتبيّن ما قام به الإمام السجّاد عليه السلام لمواجهة التحدّيات.

٣. أن يعدّد أبرز ما قام به الإمام عليه السلام على صعيد التبليغ والمواجهة.

متطلّبات مرحلة الإمام السجّاد عليه السلام

إنّ المرحلة الّتي عاشها الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام اقتضت العمل على إحباط المؤامرة الكبيرة المتمثّلة بالغرضين المتقدّمين، اللذين هما:

الأوّل: منح الشرعيّة للحاكمين.

الثاني: محاولة عزل أبناء الأمّة الإسلاميّة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام .

ومن هنا نفهم لماذا تركّزت جهود الأئمّة عليهم السلام بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام على بناء جامعة أهل البيت عليهم السلام العلميّة وتخريج علماء وفقهاء أتقياء يكونون أمناء على الشريعة، لا يهادنون السلطة ولا يسيرون في ركابها ويشكّلون تيّاراً علميّاً وزخماً ثقافيّاً ومدرسةً ذات أصول ومناهج ورموز في شتّى ميادين المعرفة الإسلاميّة. وكانت أولى نتائج هذا الجهد: صيانة الشريعة الإسلاميّة من أنواع التحريف الّذي بدأ يتسرّب إليها.

يقول الشهيد الصدر: "كان لا بدّ من عمل على الصعيد العلميّ يؤكّد في المسلمين أصالتهم الفكريّة وشخصيّتهم التشريعيّة المتميّزة المستمدّة من الكتاب والسنّة. وكان لا بدّ من حركة فكريّة اجتهاديّة تفتح آفاقهم الذهنيّة ضمن ذلك الإطار... كان لا بدّ إذن من تأصيل للشخصيّة الإسلاميّة، ومن زرع بذور الاجتهاد.

وهذا ما قام به الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، فقد بدأ حلقة من البحث والدرس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يحدّث الناس بصنوف المعرفة الإسلاميّة، من تفسير وحديث وفقه، ويفيض عليهم من علوم

آبائـه الطاهريـن عليه السلام ... وقـد تخرّج من هذه الحلقة عـدد مهمّ من فقهـاء المسلمين. وكانت هذه الحلقة هي المنطلق لما نشأ بعد ذلك من مدارس الفقه والأساس لحركته الناشطة"[١].

الإمام السجّاد ومواجهة المسخ الثقافيّ والأخلاقيّ

تميّز عصر الإمام زين العابدين عليه السلام بالانفتاح على الحضارات الأخرى ودخول الأفواج الكبيرة في رحـاب الدولة الإسلاميّة المترامية الأطراف والفتوحات ذات الغنائم والمكاسب المادّية الكثيرة المؤدّية بسوء استغلالها إلى المسخ الثقافيّ والأخلاقيّ بالتدريج.

فكانـت المرحلـة تتطلّب من الإمـام عليه السلام أن يقف أمام هـذا المسخ الخطير. وكانت جهـوده العلميّة والتربويّة هي الحصن المنيع أمام ذلك.

وأمّـا مواجهـة المسخ الأخلاقيّ فكانت تتطلّـب جُهداً من نوع آخر توجّه إليـه الإمام عليه السلام ووجّه إليه الأمّة بشكلٍ عامّ، والجماعة الصالحة بشكل خاصّ. ومن هنا برزت في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ظاهرة الدعاء الّتي ميّزتها عن سائر المدارس الإسلاميّة.

وقـد شعـر الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام بالخطـر الكبير فبدأ بعلاجه بما أمكنـه في تلك الظروف. واتّخذ من الدعاء أساساً لهذا العلاج، فكانت الصحيفة السجّاديّة من نتاج ذلك. وقد استطاع عليه السلام بمـا أُوتـي من بلاغة فريدة وقدرة فائقة علـى أساليب التعبير العربي وذهنيّـة ربّانيّة تتفتّق عن أروع المعـاني وأدقّها أن يصوّر صلة الإنسان بربّه وخالقه وتعلّقه بمبدئه ومعاده، وتجسيد ما يعبّر عن ذلك مـن قيم خلقيّة وحقوق وواجبات. ونشر من خـلال الدعاء جوّاً روحيّاً في المجتمع الإسلاميّ ساهم في تثبيت الإنسان المسلم عندما عصفت به المغريات وشدّه إلى ربّه حينما جرّته الأرض إليها.

وقـد جـاء في سيرته عليه السلام أنّه كان يخطب الناس في كلّ جمعة ويعظهم ويزهّدهم في الدنيا ويرغّبهم في أعمال الآخرة.

وهكـذا تعرف أنّ الصحيفـة السجاديّة تعبّر عن عمل اجتماعيّ عظيم، كانت ضرورة المرحلة تفرضه علـى الإمام عليه السلام إضافة إلى كونها تراثاً ربّانيّاً فريداً، يظلّ على مدى الدهور مصدر عطاء ومشعل

(١) من مقدّمة الشهيد الصدر على الصحيفة السجّاديّة.

هدايـة ومدرسـة أخلاق وتهذيب، وتظـلّ الإنسانيّة بحاجة إلى هذا التراث المحمّـديّ العلويّ، وتزداد الحاجة إليه كلّما ازداد الشيطان إغراءً والدنيا فتنةً.

مدرسة الإمام السجّاد عليه السلام

أشرنـا إلى أنّ انفتاح المسلمين في عصر الإمـام السجّاد عليه السلام على ثقافات متنوّعة وأعراف مختلفة للشعوب الّتي دخلت في الإسلام أدّى إلى خطر التأثّر بهذه الأعراف.

كمـا أنّ الحكومـة الأمويّة من أجـل إحكام سيطرتها على رقاب المسلمين سـارت في خطّ إماتة الوعي ومحاربة العلم وإنشاء مذاهب أو تيّارات عقيديّة تنتهي إلى الجمود الفكريّ والركود العلميّ بالتدريج.

مـن هنا قام الإمام زين العابديـن عليه السلام بتأسيس مدرسة علميّة وإيجاد حركة فكريّة اجتهادية تفتح الآفاق الذهنيّة للمسلمين، وذلك بما بدأه من حلقات البحث والتدريس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبما كان يُثيره في خطبه في صلوات الجُمَع أسبوعيّاً.

وقـد تخرّج من هـذه الحلقات عدد كبير من فقهاء المسلمين، يحمل وعي الإمام وروحه وعلمه. وكانت هذه الحلقات هي المنطلَق لما نشأ بعد ذلك من مدارس فقهيّة وشخصيّات علميّة. والتفّ حوله عليه السلام القـرّاء والفقهـاء والعلماء بنحوٍ لا نجد لـه نظيراً في غيره من العصور، حتّى قـال سعيد بن المسيّب: "إنّ القـرّاء كانـوا لا يخرجـون إلى مكّة حتّى يخرج عليّ بن الحسين عليه السلام فخرج وخرجنا معه ألف راكب"[1].

وقـام الإمـام عليه السلام بأداء دور مهمّ في ميـدان الإصلاح الثقافيّ أيضاً فتصـدّى لنشر حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم متحدّيـاً لحظـر السلطـة، ودعا إلى العمـل بالسنّة الشريفـة واهتمّ بتدريس القـرآن وتفسيره وحفظه وإكرام حملته، وشيّد قواعد التوحيد الإلهيّ وأجاب عن الشبهات الّتي كان يثيرها دعاة الجبر والتجسيم والتشبيه والإرجاء.

ولمّـا كانت غاية الحـكّام إقصاء أئمّة أهل البيـت عليهم السلام عن الإمامة والحاكميّـة والولاية ونفي إمامتهم

---

(١) بحار الأنوار، م.س: ٤٦/١٥٠.

الدينيّــة، أعلن الإمام السجّاد عليه السلام عن إمامة نفسه بكلّ وضوح وصراحة ومن دون أيّة تقيّة وخفاء، واهتمّ بإرشاد الناس إلى هذا المعين الصافي للشريعة.

قال أبو المنهال نصر بن أوس الطائيّ: قال لي عليّ بن الحسين عليه السلام : «إلى مَن يذهب الناس»؟ قال: قلت: يذهبون ها هنا وها هنا. قال عليه السلام : «قل لهم: يجيئون إليّ»[٢].

وقــد خرّجت مدرســة الإمام السجّاد عليه السلام كوكبة من العلماء الكبار، منهم الفقهاء والمفسّرون، يعود الفضــل إليهم في دفع عجلة الإحياء العلميّ في ذلك العصــر الرهيب، وفي مقدّمتهم الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام وأخواه زيد والحسين ابنا عليّ بن الحسين عليهما السلام، وأبان بن تغلب الّذي كان يقول له الإمام الباقر عليه السلام: "اجلس في مسجد المدينة وافتِ الناس فإنّي أحبّ أن يُرى في شيعتي مثلك"ه[٣]، وثابت بن أبي صفيّة (أبو حمزة الثماليّ)، وكانت الشيعة ترجع إليه في الكوفة لإحاطته بفقه أهل البيت عليهم السلام حتّــى شُبّه بسلمان الفارسيّ، ورشيد الهجريّ الّذي صلبه الأمويّون لعقيدته وولائه، وأبو خالد الكابليّ الّذي كان باب الإمام وموضع سرّه، وغيرهم كثير.

وحقّــق النشاط العلميّ للإمــام عليه السلام غاياته المتوخّاة، فالمسجد النبــويّ الشريف ودار الإمام عليه السلام شهدا طوال خمسة وثلاثين عاماً - وهي فترة إمامته - نشاطاً فكريّاً من الطراز الأوّل.
وكان انفــراط عقــد الشيعة بعد استشهاد الإمــام الحسين عليه السلام وتَشَتُّتُ قُواهم مــن أعظم ما واجه الإمــام السجّــاد عليه السلام لاستجماع القوى وتوسعة القاعدة الموالية لأهــل البيت عليهم السلام، وهذا كان بحاجة إلى إعداد نفسيّ وعقيديّ وإحياء الأمل في القلوب وبثّ العزم في النفوس.

وقــد تمكّــن الإمام عليه السلام بحكمته وعمله الهادئ من تحقيق المراد. وكلّ هذا يشير إلى تخطيط واضح في سلــوك الإمــام عليه السلام ولإيجاد حركة ثقافيّــة واسعة يتسنّى لهــا أن تقف أمام التّيّــارات المنحرفة والمخطّط الأمويّ الّذي يريد هدم أركان الإسلام.

---

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ٣٦٥/٤١، تحقيق علي شيري، دار الفكر - بيروت.

(٣) مستدركات علم رجال الحديث، الشيخ علي النمازي الشاهرودي:٨٦/١، مطبعة شفق - طهران.

خلاصة الدرس

- كانت نشاطات الإمام عليه السلام متّجهة إلى معالجة هذين الخطرين من خلال التأصيل العلميّ والثقافيّ والتربية الأخلاقيّة عن طريق ربط الإنسان بربّه من خلال الدعاء.
- يتلخّص نشاط الإمام عليه السلام في كشف الأقنعة المزيّفة الّتي قبع الحاكمون تحتها مستغلّين غطاءً دينياً من فقهاء السلطة ووعّاظ السلاطين.
- وكان نشاط الإمام عليه السلام التثقيفيّ والعلميّ مدرسة حقيقية حتّى أصبحت الأساس الأوّل لمدرسة أهل البيت عليهم السلام وجامعتهم العلميّة على مدى القرون حتّى يومنا هذا.
- يعتبر خرّيجو مدرسة الإمام عليه السلام وصحابته وخاصّته دليلاً آخر على عظمة النشاط الّذي مارسه الإمام عليه السلام إلى جانب الأنشطة العباديّة والاجتماعيّة ذات الآثار السياسيّة الحقيقيّة والأصيلة في المجتمع الإسلاميّ.

١٨

الدرس الثامن عشر

ملامح عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ١

الدرس الثامن عشر

ملامح عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ١

أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب ملامح الانهيار والانحراف الأمويّ أيّام الإمامين عليهما السلام.

تمهيد

استكمل الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام ما كان بدأه الإمام السجّاد عليه السلام في كشف الغطاء المزيّف الّذي تلبّس به الحكم المنحرف من قبل الخلفاء الأمويّين والعبّاسيّين. ولم يكتفِ أهل البيت عليهم السلام بالعمل الإيجابيّ وطرح البديل الصحيح لفضح الخطّ المنحرف، وإنّما قاموا بمناظرات جادّة تكشف مدى انحراف العلماء المنتمين إلى السلطة، وحاربوا كلّ الأفكار والعقائد الخاطئة في عصرهم، والّتي كان يروّج لها علماء البلاط. وساهم طلّاب مدرستهم عليهم السلام في نشر فضلهم العلميّ وتميّزهم الدينيّ والمعرفيّ على من سواهم. وهكذا بدأ المسلمون بالرغم من كلّ الظروف المعاكسة لحركة أهل البيت عليهم السلام يشعرون بضرورة الارتباط بهم. وأصبح الولاء القلبيّ لأهل البيت عليهم السلام مَعْلماً واضحاً لدى عامّة العلماء وبالتدريج لدى قطاعات كبيرة من المسلمين... وبلغ الأمر حدّاً جعل الخلفاء وعلماء البلاط يشعرون بالخطر المحدق بهم من حضور ذكر أهل البيت عليهم السلام في الساحة الإسلاميّة. وتجلّى ذلك بوضوح في عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ثمّ الكاظم والرضا عليهما السلام ، واستمرّ بالتألّق حتّى عصر الإمام العسكريّ عليه السلام. ويدلّ على ذلك مدى التضييق عليهم وشدّة الرقابة المفروضة على نشاطاتهم الاجتماعيّة والفرديّة وحتّى العائليّة، وشؤونهم الداخليّة الخاصّة.

فتشديد النقمة على الحكم الأمويّ ثمّ على الحكم العبّاسيّ وتعميم المواجهة واستمرارها هي من آثار هذا النشاط الثقافيّ الّذي مارسه الأئمّة عليهم السلام في هذه المرحلة، واستمرّ حتّى مراحل متأخّرة من حياتهم في القرن الثالث الهجريّ.

مرحلة ما بعد الإمام السجّاد عليه السلام

بعد استشهاد الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام بالسمّ الّذي دسّه إليه الحاكم الأمويّ الوليد بن عبد الملك حاول الوليد أن يمتصّ النقمة، ودبّ الخلاف بين الوليد وأخيه سليمان، حيث أراد الوليد خلعه

مـن ولايـة العهد بعده ومبايعة ابنه عبد العزيز بن الوليـد، فأبى عليه سليمان، ولم يجبه للبيعة جميع الولاة باستثناء الحجّاج وقتيبة بن مسلم وبعض الخواصّ، فعزم الوليد على السير إليه ليخلعه بالقوّة فمات قبل ذلك.

وانشغـل سليمـان سنة ٩٦هـ بمتابعة ولاة الوليد وعزلهم عـن مناصبهم[١]، كما حاول إصلاح بعض الأوضاع المتردّية تقرّباً إلى الناس، فأطلق المعتقلين وفكّ الأسرى.

وكانت الأخطار الخارجيّة والداخليّة تحيط بالدولة الإسلاميّة والحاكم الأمويّ[٢]، فانشغلت السلطة عـن ملاحقة الإمـام الباقر عليه السلام فتصدّى عليه السلام للإصـلاح، بعيداً عن المواجهـة السياسيّة العلنيّة للحكم القائم. ولم تظهر من قِبَل الحاكم وواليه على المدينة أيّة معارضة للإمام عليه السلام.

الانحراف الأمويّ في عصر الإمامين عليهما السلام

أصبح الإنسان المسلم فريسة للأهواء والمطامع نظراً للانحراف الّذي تغلغل في جميع الميادين: ميدان النفس، والحياة الاجتماعيّة، وما ذلك كلّه إلّا لابتعاد الأمّة عن منهج أهل البيت عليهم السلام، وانسياقها وراء التيّارات والأفكار الهدّامة الّتي شجّع عليها حكّام بني أميّة.

وتتلخّص أهم مظاهر الانحراف في ذلك العصر بما يلي:

١. الانحراف الفكريّ والعقائديّ

في الفـترة الواقعـة بين سنة ٩٥هـ و١٢٤هـ. تعدّدت التيّارات الفكريّـة والعقائديّة المنحرفة، وأصبحت ذات أتباع وأنصار، وتحوّلت إلى كيانات ذات إفرازات سياسيّة خالف الكثير منها الأسس الواضحة في العقيـدة الإسلاميّة، فانتشرت أفكار الجبر والتفويض والإرجاء والتجسيم وتشبيه اللّه تعالى بخلقه. وتعـدّدت تيّارات الغلوّ، وراجت الزندقة، وتزوير الحديث، وازداد الاهتمام بالصحابة كبديل عن أهل البيـت عليهم السلام. ومن هنا حاولوا توسيـع دائرة الصحبة والصحابة ليدخل في هذا العنوان كلّ من عاصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بشكلٍ من الأشكال وإن لم يتأثّر بثقافته وروحه.

دور الحكام في تزوير الحديث:

وقـد وصـف الإمام الرضا عليه السلام دور الحكّام في عملية التزويـر للحديث قائلاً: «إنّ مخالفينا وضعوا

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ١١/٥.

(٢) م.ن: ١٣/٥.

أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام:

أحدها: الغلوّ.

وثانيها: التقصير في أمرنا.

وثالثها: التصريح بمثالب أعدائنا" [1].

٢. الانحراف السياسيّ

حوّل الأمويّون الخلافة إلى ملك يتوارثه الأبناء عن الآباء، واستبدّوا بالأمر، فلا شورى ولا استشارة إلّا للمنحرفين والفسّاق.

أمّا بالنسبة إلى حكّامهم والسياسة الّتي اتّبعوها فكانت على الشكل التالي:

كان الوليد بن عبد الملك جبّاراً عنيداً ظلوماً غشوماً [2]، وحاول سليمان بن عبد الملك من بعده أن يُصلح الأوضاع تقرّباً إلى الناس فأطلق السجناء، لكن سياسته العامّة لم تتغيّر لأنّ كثيراً من البلدان كان يتولّاها القساة الظلمة من أمثال والي العراق خالد بن عبد الله القسريّ [3]. واتّبع الوليد وسليمان ابنا عبد الملك سيرة أبيهما في قتل الرافضين للبيعة لهما.

وحينما تولّى عمر بن عبد العزيز الحكم اتّخذ سياسة جديدة تخالف من سبقه، فقام ببعض الإصلاحات كمنح الحريّة للمعارضين، وألغى سنّة سبّ أمير المؤمنين عليه السلام من على منابر المسلمين، وردّ فدكَ إلى أهل البيت عليهم السلام، وأمر بردّ المظالم [4]. ولكنّ حكمه لم يدم أكثر من سنتين وخمسة أشهر، ثمّ عاد الوضع إلى ما كان عليه سابقاً.

وكَثُرت في هذه المرحلة اختلافات البيت الأمويّ تنافساً على الحكم، كما كثرت الفتن الداخليّة. وقد أفتى بعض المتملّقين إلى الأمويّين أنّه ليس على الخلفاء حساب!

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، محمّد بن علي بن بابويه المعروف بالصدوق: ١/٣٠٤، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

(٢) مروج الذهب، م.س: ٣/١٥٧.

(٣) م.ن: ٣/١٧٩.

(٤) الكامل في التاريخ، م.س: ٥/٦٢.

وكانت الأمّـة الإسلاميّة محاطة بمخاطر شتّى، ففـي سنة ١٠٤هـ ظفر الخـزر بالمسلمين وانتصروا عليهم في بعض الثغور. وفي عهد هشام بن عبد الملك ازداد الإرهاب والتنكيل بأهل البيت عليهم السلام وأتباعهم وسائر المعارضين. فقد أقدم هشام على سجن الإمام الباقر عليه السلام ثمّ أخرجه لتأثّر السجّانين به[٥]. وأصـدر أوامـره بقتل بعض أتباع الإمـام الباقر عليه السلام، إلّا أنّ الإمـام عليه السلام استطاع أن ينقذهم من القتل، حيث استفادوا من أسلوب التقيّة الّذي أرشدهم إليه الإمام عليه السلام.

٣. الانحراف الاجتماعيّ والأخلاقيّ

حـوّل الأمويّون الأنظار إلى الغزوات وفتـح البلاد طلباً للغنائم وإبعاداً للمعارضـين. وأدّى التوسّع في غـزو البلاد المجاورة إلى خلق أنـواع من الاضطراب في المجتمع الإسلاميّ مثـل تشتيت الأُسَر بغياب المعيـل أو فقدانـه، وكثُر العبيد المأسـورون (الجواري والغلمـان) ممّا أدّى إلى التشجيـع على اقتناء الجواري والمغنّيات. وانتقل هذا الانحراف من البلاط إلى الأمّة. وانشغل الحكّام باللهو وانساقوا وراء الشهـوات دون حـدود. ومن هنا تطوّرت ظاهرة الغزل والتشبيب بالنساء في العهد الأمويّ كما يُفصح عن ذلك تأريخ الأدب العربيّ[٦].

٤. الانهيار الاقتصاديّ

خالـف الأمويّون الأسس الثابتة للنظـام الاقتصاديّ الإسلاميّ الّتي تنصّ علـى أنّ الأموال هي أمانة الله عنـد الحاكم، وليسـت ملكاً شخصيّاً له، فتصرّف حكّامهم بالأمـوال وكأنّها ملكٌ شخصيّ لهم، فكانـوا ينفقونها حسب رغباتهم وأهوائهم، وبالأخصّ علـى ملذّاتهم. وكان للجواري والمغنّين نصيب كبير في بيت المال، كما كانوا ينفقون الأموال لشراء الذمم والضمائر ويمنحونها لمن يشترك في تثبيت سلطانهم أو مدحهم والثناء عليهم، فقد مدح الشيبانيّ يزيد بن عبد الملك فأمر له بمائة ناقة، وكساه وأجزل صلته[٧].

وكان الحـكّام يعيشون في أعلى مراتب الترف والبـذخ، ويبذّرون أموال المسلمين على شهواتهم، وعلى المقرّبين لهم، في وقت كان يعيش فيه كثير من الناس حياة الفقر والجوع والحرمان.

(٥) مناقب آل أبي طالب،م.س: ٢٠٦/٤.

(٦) الأغاني، م.س: ٢١٩/٦.

(٧) م.ن: ١٠٩/٧.

وضاعـف هؤلاء الحكّام الضرائب، فأضافوا ضرائب جديدة على الصناعات والحِرَف، خصوصاً في عهد هشام بن عبد الملك الّذي كان يُنفق ما تجمّع لديه منها على الشعراء المادحين له[1].

وانساق الناس وراء شهواتهم ورغباتهم خصوصاً أتباع الأمويّين. وهكذا أخذ الناس يسعون للحصول على المال بأيّ وجه ما دام الحكّام لا همّ لهم إلّا كسب الأموال والترف في هذه الحياة الدنيا، ولزم من ذلـك غياب كثير من مشاعر الرحمة والتعاطف والإيثار فيما إذا قيس وضع الأمّة إلى عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

خلاصة الدرس

- زخر عصـر الإمامـين الصادقين عليهما السلام بالاضطرابـات السياسيّـة الحادّة والصراعـات الفكريّة العميقة، نتيجة السياسة الأمويّة المنحرفة.
- شهـدت تلك الحقبـة الزمنية من عصر الإمامين عليهما السلام مظاهر من الانحـراف الفكريّ والعقائديّ تمثّل في تزوير الحديث، وظهور حركة الزندقة، والانحراف السياسيّ المتمثّل بتحويل الخلافة إلى ملـك، والانحراف الأخلاقيّ والاجتماعيّ المتمثّل بضياع مكارم الأخلاق وإشاعة الفساد الخلقيّ، والانحـراف الاقتصاديّ حيث تحوّلت الأموال في ظلّ الحكـم الأمويّ إلى ملك شخصيّ يتصرّف به الحاكم كما يشاء.

---

(١) م.ن: ١/٣٣٩.

١٩

الدرس التاسع عشر

ملامح عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ٢

الدرس التاسع عشر

ملامح عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ٢

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف إلى أبرز ما قام به الإمامان عليهما السلام لمواجهة الانحراف.

الملامح العامّة لعصر الإمامين عليهما السلام

يُعتبر عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام (٩٥-١٤٨هـ) حتّى بداية أيّام هارون الرشيد (١٧٠هـ) هو عهد الانفراج للنشاط الفكريّ لمدرسة أهل البيت عليهم السلام إذا ما قيس إلى العهود السابقة واللاحقة.

وعلى الرّغم من كلّ مظاهر الانحراف الّتي تحدّثنا عنها إلّا أنّ الحكم الأمويّ كان قد أخذ بالضعف والانهيار حتّى السقوط (سنة ١٣٢هـ) لأسباب قد نتعرّض لها فيما سيأتي. أمّا بداية العهد العبّاسيّ فكانت وفقاً لكيفيّة نشوئه بداية دولة فتيّة لا سيّما وهي ترفع شعار الرضا من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

فتلك النهاية وهذه البداية اجتمعتا لتشكّلا عصر ضعف الدولتين. ومن الطبيعيّ في هذا الظرف أن يشتغل الحكّام وأتباعهم بإحكام القبضة على الحكم لئلاّ يفلت من أيديهم زمام الأمر. إنّ تنامي الاضطرابات ضدّ الحكّام الأمويّين من جهة، والتناحر بين رموز البيت الأمويّ من جهةٍ ثانية، واشتداد نقمة الأمّة على الحكّام، هي من جملة أسباب هذا الانهيار وانقراض الحكم الحديديّ الأمويّ.

ومن هنا سُمّي هذا العصر بعصر انتشار علوم آل محمّد. وكان فضلاء الشيعة ورواتهم -في تلك السنين- آمنين على أنفسهم، مطمئنّين، مجاهرين بالولاء لأهل البيت عليهم السلام، معروفين بذلك بين الناس، ولم يكن للأئمّة عليهم السلام مزاحم في نشر الأحكام، فكان شيعتهم يحضرون مجالسهم العامّة والخاصّة للاستفادة من علومهم. وفي تلك المدّة القليلة كتبوا عن أئمّتهم أكثر ما ألّفوه، وبسعيهم نُشرت علوم آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهناك عامل آخر ساعد الإمامين الصادقين عليهما السلام على القيام بمهامّهما الفكريّة، هو ابتعادهما عن الطموح إلى تولّي السلطة، لعلمهما بأنّها لا تصل إليهما وأنّهما لا يصلان إليها، لأسباب أدركاها

مـن متابعتهما لما جرى ويجري من أحداث، ولمعرفتهما بواقع المستويات الاجتماعيّة والسياسيّة لأبناء الأمّـة الإسلاميّة آنذاك، فلـم يقتربا من سلطان ولم يتّصلا بسلطـة ولم يتدخّلا بشأن سياسيّ يمتّ إلى النظـام الأمويّ أو النظام العبّاسيّ بوجهٍ من الوجوه وسيأتي تفصيل ذلك في الدرس الرابع عشر إن شاء اللّه تعالى.

وامتـاز عهد الإمامين الصادقين عليهما السلام بميزةٍ أخرى هي: غـزو الحضارات الوافدة كاليونانيّة والهنديّة والفارسيّـة والعبريّة والسريانيّة، بما تحمل من فلسفـات وثقافات ونظريّات لا تلتقي مع وجهة النظر الإسلاميّة.

فلا بدّ أن تكون للمسلمين فلسفة منبعثة من واقع النظريّة الإسلاميّة، حتّى لا تؤثّر الفلسفات الوافدة والحضارات غير الإسلاميّة سلباً عليهم.

ولم يكـن بـين المسلمين آنذاك شخصيّـة مؤهّلة علميّاً تتصدّى لهذه المسؤوليّـة غير الإمامين عليهما السلام، ولا سيّما في عصر الإمام الصادق عليه السلام .

لقـد أدرك الإمام الصادق عليه السلام خطـورة هذه المرحلة وضرورة التهيّؤ لهـذا العمل العسير، ليؤسّس للمسلمين مدرستهم الفلسفيّة الخاصّة بهم، لتحتضن فكرهم الفلسفيّ الإسلاميّ، وتقف أمام تحدّي الحضارات الوافدة وتحدّ من تأثيرها على الذهنيّة الإسلاميّة في مجال العقيدة والتشريع معاً.

عـن الإمـام الصادق عليه السلام: «لمّا حضـرت أبي الوفاة قال: يـا جعفر أوصيك بأصحابـي خيراً، قلت: جعلت فداك، واللّه لأدَعَنَّهم[1] والرجلُ منهم يكون في المصر فلا يَسأَلُ أحداً»[2].

فالإمـام الصادق عليه السلام كان قد استعدّ وخطّـط لمرحلة تصدّيه للإمامة وذلك بالتركيز على الإعداد العلمـيّ والإغنـاء الثقافيّ بحيث يجعل كلّ واحد من تلامذة أبيـه الباقر عليه السلام في غنى عن الأخذ من غيره.

(١) أي لأغنينّهم.

(٢) الإرشاد، الشيخ المفيد، محمّد بن النعمان العكبري البغدادي: ١/ ٤٠، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، وبحار الأنوار، م. س: ١٢/٤٧.

وهذا يعني الإعداد لمرجعيّة أصحاب أهل البيت العلميّة فضلاً عن مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام أنفسهم.

كما أنّ الإمام الباقر عليه السلام كان قد هيّأ أصحابه وشيعته لأخذ معالم الشريعة من ابنه الإمام الصادق عليه السلام عندما قال لهم: «إذا افتقدتموني فاقتدوا بهذا ـ مشيراً إلى الإمام الصادق عليه السلام ـ فإنّه الإمام والخليفة بعدي»[1] ١٣.

المرحلة الانتقالية بين الإمامين عليهما السلام

لم يكن الوضع السياسيّ الّذي كان يريد الإمام الصادق عليه السلام أن يتحرّك فيه قد تبدّل عن عصر أبيه الإمام الباقر عليه السلام، فهشام بن عبد الملك الّذي أقدم على اغتيال الإمام الباقر عليه السلام كان هو الحاكم الطاغي، وسياسته مع الإمام الصادق عليه السلام وشيعته كانت هي مبنيّة على أساس الحقد الجاهليّ والترويع والاضطهاد.

فقد تعرّض زيد بن عليّ عمّ الإمام الصادق عليه السلام في زمن أخيه الإمام الباقر عليه السلام للإذلال والتوهين من قبل هشام باعتباره أحد رموز أهل البيت عليهم السلام. كما جعل زيد يزداد قناعة بضرورة الثورة المسلّحة ضد الحكّام بسبب فسادهم وجلوسهم في موقع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهم يحكمون باسمه في الوقت الّذي يستهينون فيه بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وهم غير مكترثين برسالته ولا بمن يسبّه عندهم.

فحينما صمّم زيدٌ على الثورة المسلّحة ضد طغاة بني أميّة جاء إليه جابر بن يزيد الجعفيّ يسأله عن سبب تصميمه على الثورة ويخبره بأنّه لو خرج يُقتل.

فقال زيد لجابر: «يا جابر لم يَسَعْنِي أن أسكت وقد خولف كتاب الله وتحوكم بالجبت والطاغوت، وذلك أنّي شاهدت هشاماً ورجل عنده يسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت للسابّ: ويلك يا كافر، أما إنّي لو تمكّنت منك لاختطفتُ روحك، وعجّلتك إلى النار. فقال لي هشام: مَه جليسنا يا زيد".

ثمّ قال زيد لجابر: «فوالله لو لم يكن إلّا أنا ويحيى ابني لخرجتُ عليه وجاهدته حتّى أفنى»[2].

---

(١) بحار الأنوار، م.س: ١٦/٤٧.

(٢) أعيان الشيعة،م.س: ١١٦/٧.

زيد وإعلان الثورة

جمع زيد بن عليّ الأنصار والدعاة وأعلن ثورته، والتحق به عدد غفير وأيّده جمع من الفقهاء والعلماء على ذلك.

لكنّ المتتبّع للوضع السياسيّ والأخلاقيّ لتلك المرحلة يرى أنّ الاضطراب العقائديّ والأخلاقيّ كان سمة من سمات ذلك العصر. وبالرغم من التذمّر الصارخ من بني أميّة وجورهم، وبالرغم من بحثهم عن بديل سياسيّ يتمثّل في خط أهل البيت عليهم السلام، نجد أنّ هاتين المفردتين لم تفيا بكامل الشروط الموضوعيّة لنجاح الثورة، بل نجد ظاهرة التخذيل والتشكيك في حركة زيد سمة بارزة في هذه المرحلة أيضاً.

إذاً، فَجّرَ زيد ثورته وحقّق نصراً حاسماً ضد الأمويّين، وخاض حرباً كادت أن تنتهي لصالحه لولا وقوع الفتنة في صفوف أتباعه المقاتلين، حيث تعمّدت بعض العناصر الدخيلة تفريق جيشه وأتباعه، لكنّه صمد وقاتل حتّى استشهد.

وبعد قتله نبش الأمويّون قبره وصلبوه في كناسة الكوفة ثمّ أُنزل فأُحرق جسده وذرّوه في الهواء، سلام الله عليه [٣].

وبعد هذا المصاب نجد الإمام الصادق عليه السلام في مواقف متعدّدة يتبنّى الدفاع عن عمّه زيد، ويترحّم عليه ويوضّح منطلقاته وأهدافه ويرسّخ في النفوس مفهوماً إسلاميّاً عن ثورته، حيث يعتبر هذه الثورة جزءاً من حركة الإمام عليه السلام وليست حدثاً خارجاً عنها، كما نجده يردّ على الإعلام المضادّ للثورة في عدّة مواقف وتصريحات منها:

ما رواه الفضيل بن يسار قال: ذهبت إلى المدينة بعد قتل زيد لألتقي بالإمام الصادق عليه السلام وأخبره بنتائج الثورة، وبعد أن التقيته وسمع منّي ما دار في المعركة قال: «يا فضيل شهدت مع عمّي قتال أهل الشام؟ قلت: نعم، قال: فكم قتلتَ منهم؟ قلت: ستّة، قال: فلعلّك شاكٌّ في دمائهم؟ قال: فقلت: لو كنت شاكّاً ما قتلتهم. ثمّ قال: سمعته وهو يقول: أشركني الله في تلك الدماء، مضى واللهِ زيدٌ عمّي وأصحابه شهداء، مثل ما مضى عليه عليّ بن أبي طالب وأصحابه [٤].

(٣) راجع: مقاتل الطالبيّين، م. س: ٩٠.

(٤) أمالي الصدوق، محمّد بن علي بن بابويه المعروف بالصدوق: ١/٢٨٦، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٠م.

خلاصة الدرس

- خلال هذه الفترة توجّه الإمام الباقر عليه السلام إلى بناء المدرسة العلميّة والفكريّة لأهل البيت عليهم السلام .
- كانت الملامح العامّة لعصر الصادقين عليهما السلام هي بداية ضعف الحكم الأمويّ وانشغال الحكّام بالمحافظة على مصالحهم، ومن هنا سُمّي هذا العصر بعصر انتشار علوم آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم .
- عمل الإمامان الصادقان عليهما السلام على الإعداد العلميّ والإغناء الثقافيّ بحيث جعلا كلَّ واحدٍ من تلامذتهم في غنى عن الأخذ من غيره، وهذا يعني الإعداد لمرجعيّة أصحاب أهل البيت عليهم السلام العلميّة.

٢٠

الدرس العشرون

الإمام الباقر عليه السلام والإصلاح في الأمّة ١

الدرس العشرون

الإمام الباقر عليه السلام والإصلاح في الأمّة ١

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى منهج الإصلاح الذي اعتمده الإمام الباقر عليه السلام.

٢. أن يعدّد أبرز محاور هذا الإصلاح.

تركّز عمل الإمام الباقر عليه السلام ونشاطه على إصلاح الواقع الفاسد والّذي كان يدور حول محورين أساسين:

١- محور الأمّة الإسلاميّة وهو محور النشاط العامّ.

٢- محور أتباع أهل البيت عليهم السلام وهو محور النشاط الخاصّ.

المحور الأوّل: النشاط العامّ:

١. الإصلاح الفكريّ والعقائديّ

بعد نشوء التيّارات السياسيّة والفكريّة المنحرفة تطلّب الأمر إصلاحاً فكريّاً وعقائديّاً يتراوح بين ردّ الشبهات والأفكار المنحرفة من جهة، وبيان البديل الصالح والفكر السليم من جهةٍ أخرى، وتمّ ذلك بأساليب عديدة، منها:

أ. المواجهة العلنيّة للحركات المنحرفة: فقد واجه الإمام عليه السلام حركة الغلاة الّتي نشطت بقيادة المغيرة بن سعيد العجلي، فكان يلعنهم أمام الناس، وحركة المرجئة[1] الذين قال عليه السلام فيهم: "اللّهم العن المرجئة فإنّهم أعداؤنا في الدنيا والآخرة"[2]، وحركة المفوّضة والمجبّرة[3]. وكان عليه السلام

---

(١) المرجئة: وهم القائلون: "قدّموا الإيمان وأخّروا العمل"، وأشاروا إلى الاكتفاء في تفسير الإيمان بالشهادة اللفظيّة والمعرفة القلبيّة، وأنّ عصاة المؤمنين لا يعذّبون، واقتحام الكبائر لا يضرّ.

(٢) بحار الأنوار، م.س: ٤٦/٢٩١.

(٣) المفوّضة: هم القائلون بتفويض الأمور إلى العباد، وإنّه ليس لله سبحانه أيّ صُنع في أفعالهم. - المجبّرة: وهم من يعتقدون أنّ الله تعالى أجبر الإنسان على أفعاله، وينسبون إليه عزّ وجلّ كلّ قبيح.

يحذّر منهما بقوله: «إيّاك أن تقول بالتفويض فإنّ الله عزّ وجلّ لم يفوّض الأمر إلى خلقه وهناً وضعفاً، ولا أجبرهم على معاصيه ظلماً»[٤].

وجرت بينه عليه السلام وبين أرباب الأديان والمذاهب مناظرات متعدّدة.

ب. **محاسبة الفقهاء المخالفين:** فحاسب أمثال أبي حنيفة لقوله بالقياس، وفي ذلك يقول محمّد أبو زهرة:[٥] «تتبيّن إمامة الباقر عليه السلام للعلماء، بمحاسبتهم على ما يبدو منهم، وكأنّه الرئيس يحاكم مرؤوسيه ليحملهم على الجادّة، وهم يقبلون طائعين تلك الرئاسة»[٦].

ج. **نشر حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام.**

د- **الدعوة إلى أخذ العلم من مصادره النقيّة**، حيث حذّر عليه السلام من الإفتاء بالرأي وقال عليه السلام لبعض من سأله: «شرّقا وغرّبا فلا تجدان علماً صحيحاً إلّا شيئاً خرج من عندنا»[٧]٧.

٢. الإصلاح السياسيّ

استثمر الإمام عليه السلام بعض أجواء الانفراج السياسيّ النسبيّ لبناء وتوسعة القاعدة الشعبيّة، وتسليحها بالفكر السياسيّ السليم، وتجلّى دوره الإصلاحيّ في الممارسات التالية:

أ. الدعوة إلى تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لكونهما يحرّران الإنسان والمجتمع من جميع ألوان الانحراف في الفكر والعاطفة والسلوك، عنه عليه السلام: «إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحين، وفريضة عظيمة بها تُقام الفرائض وتأمن المذاهب... وتُردّ المظالم وتعمر الأرض، ويُنتصف بها من الأعداء»[٨].

ب. نشر المفاهيم السياسيّة السليمة: وجّه الإمام عليه السلام الأنظار إلى دور أهل البيت عليهم السلام في قيادة الأمّة

(٤) م.ن: ٢٩٨/٥.

(٥) من مشايخ الأزهر، أستاذ الشريعة بكليّة الحقوق في جامعة القاهرة، ت ١٣٩٤هـ.

(٦) تاريخ المذاهب الإسلاميّة:٣٦١.

(٧) الكافي، محمّد بن يعقوب الكليني: ٣٩٩/١، تحقيق علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، قم، ١٩٨٦م.

(٨) تهذيب الأحكام في شرح المقنعة، محمّد بن الحسن، المعروف بالطوسي: ١٨/٦، دار الكتب الإسلامية، قم، ط٤.

نحــو الرشــاد بما ورد عنه عليه السلام: «نحن ولاة أمر الله وخزائن علم الله، وورثة وحي الله، وحملة كتاب الله، وطاعتنــا فريضة، وحبّنا إيمان، وبغضنا كفر، محبّنا في الجنّــة، ومبغضنا في النار»[1]٩. وحذّر الأمّــة مــن الابتعاد عــن نهج أهل البيت عليهم السلام، وحثّ علــى نصرتهم عليهم السلام، وأكّد أنّ تــولّي الإمام لمنصب الإمامة منحصر بالنصّ.

جـ. الدعـوة إلى مقاطعة الحكم القائم: فبالإضافــة إلى كشف الإمام عليه السلام حقيقة الحكم الأمويّ، والجرائــم الّتــي ارتكبها بقولــه: «... وكان عِظم ذلك وكـبره زمن معاوية بعد مــوت الحسن، فقُتلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقطعت الأيدي... ثمّ لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين»[2] ، فقد دعا عليه السلام إلى ترك إعانة الحكم الجائر ونهى عن إسناده، فقال ـ في معرض جوابه عن العمل معهم ـ: «ولا مدّة قلم، إنّ أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلّا أصابوا من دينه مثله»[3].

د- موقفـه من الجهاد المسلّح: وقـف الإمام عليه السلام موقف الحياد من الثـورات الّتي قادها الخوارج، فلم يصدر عنه تأييد ولا معارضة. وفي عهده عليه السلام لم تنطلق أيّ ثورة علوّية لأنّه كان مشغولاً بتوسعة القاعــدة الشعبيّة، لكي تنطلق فيما بعد لإكمال العدّة والعــدد. وكان يوجّه الأنظار إلى ثورة أخيه زيد الّتي ستنطلق في المستقبل، ويحذّر من خذلانه، فعنه عليه السلام: «إنّ أخي زيد بن عليّ خارج فمقتول على الحقّ، فالويل لمن خذله والويل لمن حاربه، والويل لمن قاتله»[4]١٢.

٣. الإصلاح الاجتماعيّ والأخلاقيّ

بذل الإمام الباقر عليه السلام عناية خاصّة لإصلاح أخلاق أبناء المجتمع الإسلاميّ بدءاً بالمقرّبين منه، ثمّ في سائر الأوساط الاجتماعيّة والمؤسسات الحكوميّة، وذلك عبر أساليب متعدّدة منها:

أ . توظيف السُنّة النبويّة لإيجاد التغيير:

لأنّها تتضمّن عناصر التغيير الأخلاقيّ والإصلاح الاجتماعيّ. ومن هنا أخذ الإمام عليه السلام يهتم بنشر

(١) مناقب آل أبي طالب، م.س: ٤/٢٢٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، م.س: ١١/٤٢ ـ ٤٣.

(٣) الكافي، م.س: ٥/١٠٧.

(٤) مقتل الحسين عليه السلام ، الخوارزمي: ٢/١١٣.

الحديث الشريف محقّقاً بذلك هدفين مهمّين:

١. كسر طوق الحظر الّذي كان قد فرضه الحكّام على أبناء الأمّة لإبعادها عن مصدري عزّتها وكمالها وهما سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته الشريفة.

٢. إيجاد عامل التغيير الأخلاقيّ معتمداً على تقديس الأمّة لنبيّها العظيم والتأسّي بأخلاقه. ومن أصول التغيير الأخلاقيّ الّذي اعتمده عليه السلام هو تغيير العناصر المؤثّرة في بناء المجتمع كما ورد في الحديث الشريف: «صنفان من أمّتي إذا صلحا صلحت أمّتي، وإذا فسدا فسدت أمّتي... الفقهاء والأمراء»[٥]، ونشر الإمام عليه السلام المفاهيم الأخلاقيّة فأكّد على العفّة والحياء، وحُسْنِ الخلق وإدخال السرور على المؤمنين، وصلة الرحم وغيرها من المفاهيم الّتي برزت في أحاديثه وكلماته عليه السلام.

ولم يكتفِ عليه السلام بنشر الأحاديث الشريفة والدعوة إلى تجسيد محتواها في الواقع، وإنّما قام بأداء دور القدوة في ذلك. فكان عليه السلام يعالج الواقع الفاسد معالجة عمليّة من خلال سيرته الحسنة.

ب . الدعوة إلى اكتساب مكارم الأخلاق:

كثّف الإمام عليه السلام دعوته إلى إصلاح النفوس واكتساب مكارم الأخلاق لتكون العلامة الفارقة لتعامل المسلمين فيما بينهم، فكان عليه السلام يدعو إلى إفشاء السلام، وهو مظهر من مظاهر الإخاء والودّ والصفاء في العلاقات الاجتماعيّة، كما دع عليه السلام إلى تطهير اللسان فعنه عليه السلام: «قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يقال لكم، فإنّ الله يُبغض اللّعّان السبّاب الطعّان على المؤمنين، الفاحش المتفحّش، السائل الملحف. ويحبّ الحييّ الحليم، العفيف المتعفّف»[٦].

ودعا إلى الارتباط بأهل التقوى وتعميق أواصر العلاقات معهم. وأوضح عليه السلام حقوق المؤمن على المؤمن، وحذّر من ظلم الآخرين أو الإعانة على ظلمهم، ودع عليه السلام إلى مقابلة الإساءة والقطيعة بالإحسان والصلة.

وهكذا نلاحظ تنوّع أساليب الإمام عليه السلام لإيجاد التغيير الأخلاقيّ في عامّة طبقات المجتمع.

---

(٥) الخصال، محمّد بن عليّ بن بابويه المعروف بالصدوق: ١/٢٦٠، تحقيق علي أكبر الغفاري، المكتبة الإسلامية، طهران، ١٣٤٨هـ ش.

(٦) تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، الحسن بن عليّ الحرّاني، تحقيق: علي أكبر الغفاري: ٢٢٠، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط ٢، ١٤٠٤ هـ - ١٣٦٣ هـ. ش.

٤. الإصلاح الاقتصاديّ

لم يكـن الإمام الباقـر عليه السلام على رأس سلطة حتّـى يستطيع إصلاح الأوضـاع الاقتصاديّة إصلاحاً عمليّـاً جذريّاً. ومن هنـا اقتصر عليه السلام على نشـر المفاهيم الإسلاميّة الصحيحـة المرتبطة بالحياة الاقتصاديّـة، والنظـام الاقتصـاديّ الإسلامـيّ. وهنا نلاحـظ أنّ الإمام عليه السلام حـدّد أوّلاً الأهداف المتوخّـاة من التصرّف بالأموال، فهـي وسيلة للتفرّغ إلى عبادة الله تعـالى، فعنه عليه السلام: «نِعْمَ العون الدنيا على طلب الآخرة»[1].

وذكر عليه السلام مصاديق طلب الآخرة في الرواية الشريفة عنه: «من طلب الرزق في الدنيا استعفافاً عن الناس وتوسيعاً على أهله... لقي الله عزّ وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»[2].

وأكّد على حرمة بعض التصرّفات الماليّة كالتطفيف في المكيال.

وقدّم عليه السلام مهمّة سدّ احتياجات المسلمين على أهمّ العبادات المستحبّة مثل الحجّ تطوّعاً، عنه عليه السلام: «لئن أحجّ حجّة أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة ورقبة - حتّى انتهى إلى سبعين - ولئن أعول أهل بيت من المسلمـين، أشبع جوعتهـم، وأكسو عورتهم، وأكفّ وجوههم عن الناس، أحـبّ إليّ من أن أحجّ حجّة، وحجّة، حتّى انتهى إلى سبعين»[3].

ثمّ إنّه عليه السلام دعا إلى التعالي على الحرص والطمع، ووجّه الأنظار إلى الآثار السلبية لهما، وحثّ على القناعـة لأنّها إحدى مقدّمات السعادة الروحية، ودعا إلى الاقتصاد والاعتدال في مختلف الظروف، وحذّر من الاعتداء على أموال الآخرين.

---

(١) الكافي، م.س: ٧٣/٥.

(٢) م.ن: ٧٨/٥.

(٣) م.ن: ٢/٤.

خلاصة الدرس

- انصبّ دور الإمام الباقر عليه السلام على إصلاح الواقع الفاسد والّذي كان يدور حول محورين أساسين:
  1. محور الأمّة الإسلاميّة، وهو محور النشاط العامّ.
  2. محور أتباع أهل البيت عليهم السلام ، وهو محور النشاط الخاصّ.
- في المحور الأوّل: عمل الإمام عليه السلام على مجموعة من الإصلاحات الفكريّة والعقائديّة حيث واجه الحركات المنحرفة، وحاسب فقهاء السلطة ونشر أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، والإصلاح السياسيّ، حيث دعا إلى تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر المفاهيم السياسيّة السليمة، والإصلاح الاجتماعيّ والأخلاقيّ، حيث وظّف السنّة النبويّة لإيجاد التغيير، وإلى اكتساب مكارم الأخلاق، والإصلاح الاقتصاديّ.

٢١

الدرس الحادي والعشرون

الإمام الباقر عليه السلام والإصلاح في الأمّة ٢

الدرس الواحد والعشرون

الإمام الباقر عليه السلام والإصلاح في الأمّة ٢

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى منهج الإصلاح الذي اعتمده الإمام الباقر عليه السلام.

٢. أن يعدّد أبرز محاور هذا الإصلاح.

تقدم الكلام في أنه تركّز عمل الإمام الباقر عليه السلام ونشاطه على إصلاح الواقع الفاسد والّذي كان يدور حول محورين أساسين:

١. محور الأمّة الإسلاميّة - وهو محور النشاط العامّ-.

٢. محور أتباع أهل البيت عليهم السلام -وهو محور النشاط الخاصّ-.

وقد تقدم الكلام في المحور الأول. وننتقل الآن إلى المحور الثاني..

المحور الثاني: النشاط الخاصّ

وهو عمليّة بناء الجماعة الصالحة من أتباع أهل البيت عليهم السلام، حيث قام الإمام الباقر عليه السلام بنشاط كبير لتربية أجيال صالحة وتوعيتهم على حقائق الرسالة. وهذا ما يكشف عن التخطيط البعيد المدى الّذي حرص الإمام عليه السلام على تحقيقه لبثّ الوعي المطلوب في الأمّة. وتمثّلت حصيلة هذه التربية في كوكبة من أصحاب الإمام عليه السلام وعلى رأسهم: زرارة بن أعين، وأبو بصير الأسديّ، والفضيل بن يسار، ومحمّد بن مسلم الطائفيّ، وبرير بن معاوية العجليّ... وهؤلاء الطليعة المتقدّمة من أصحابه تلتها طبقة ثانية من صحابته مثل: حمران بن أعين، وإخوته، ومحمّد بن مروان الكوفيّ، وإسماعيل بن الفضل وآخرون[1]. وتنوّعت توجّهات الجماعة الصالحة، فمنهم الفقهاء ومنهم قادة الثورات ومنهم المصلحون الّذين كانوا يجوبون الأمصار لتعميق منهج أهل البيت عليهم السلام في قلوب الناس.

---

(١) مناقب آل أبي طالب، م.س: ٢٢٩.

أهمّ خصائص الجماعة الصالحة

إنّ الأهـداف الكـبرى للجماعة الصالحة الّتي بناها الإمام الباقـر عليه السلام تتلخّص في حفظ الشريعة الإسلاميّـة مـن التحريف، والمحافظة على المجتمـع الإسلاميّ. وهذا يتطلّب توفّـر مواصفات خاصّة وبمستـوى عالٍ في الجماعة الّتي يُراد تحقيقها، ويمكن أن نجمـل هذه الخصائص والمواصفات فيما يلي:

١. العقيـدة الصحيحة والثقافة الإسلاميّة: فالعقيدة هي أساس أيّـة حركة أصيلّة سليمة، وبمقدار قوّة العقيدة ووضوحها وانسجامها مع الركائز النظريّة للإنسان يكون النجاح والثبات والاستمرار والتطـوّر مضمونـاً لأصحابها. ولهـذا حرص أهل البيـت عليهم السلام على بيان معالم العقيـدة السليمة، وإعطـاء تفاصيلها إلى أتباعهم باستمرار، ونلمس ذلك في التراث الّذي حفظه لنا أتباعهم، وهو ثروة كبرى في هذا المضمار[٢].

٢. الرجوع إلى أهل بيت الوحي عليهم السلام: في معرفة الدِّين وفهم تفاصيل الشريعة وحقائق الرسالة والولاء السياسيّ والفكريّ لهم. وقد تميّز أتباع أهل البيت بهذه الصفة فإنّهم لا يتعدّون نصوص وتراث أهل البيت عليهم السلام الغني كلّ الغنى في هذا الجانب، فإنّ أهمّ ما عكف عليه أهل البيت عليهم السلام إلى جانب كلّ نشاطاتهـم الاجتماعيّة والفرديّة هو بيان ضرورة رجوع الأمّة إليهم لمعرفة الدين. وقد أعلنوا ذلـك ضمـن احتجاجهم على علماء سائر فرق المسلمين، وأمام أعـين الخلفاء وطلّاب الحقيقة، فعـن الإمـام الباقر عليه السلام: «واللّه إنّا لخزّان اللّه في سمائه وأرضه، لا على ذهب ولا على فضّة إلّا على علمه»[٣].

وعنـه عليه السلام: «إنّ العلـم الّذي نزل مع آدم عليه السلام لم يُرفع، والعلم يُتوارث، وكان عليّ عليه السلام عالم هذه الأمّة، وإنّه لم يهلك منّا عالم قطّ إلّا خلفه من أهله من علم مثل علمه أو ما شاء اللّه»[٤].

---

(٢) ونستطيـع أن نجـد بغيتنا فيما جاء في القسـم العقائديّ من أصول الكافي وكتاب الاحتجـاج والقسم العقائديّ من موسوعة بحار الأنوار للعلاّمة المجلسي قدس سره.

(٣) الكافي، م.س: ١/ ٢٢٨.

(٤) م.ن: ١/ ٢٢٢.

٣. الاتّصاف بدرجةٍ عُليا من الكمالات النفسيّة والعمليّة: اهتمّ أهل البيت عليهم السلام بتربية أتباعهم تربية تجعلهم في مستوى رفيع من الكمالات بحيث تجعلهم في مستوى القدوة الحسنة للآخرين، حتّى عُرف شيعة أهل البيت بهذه الميزة على مدى القرون والأجيال...

قال الإمام الباقر عليه السلام لجابر بعد بيانه لكيفية تقييم الإنسان الشيعيّ لنفسه بشكل دائم، ذاكراً خصائص ومميّزات هذا المسلم: «وما كانوا يُعرفون - يا جابر - إلّا بالتواضع والتخشّع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبرّ بالوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الألسن عن الناس إلّا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء»[١].

منهج الإمام عليه السلام في التربية والتزكية لشيعته

اعتبر الإمام الباقر عليه السلام أنّ الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، وكلّ جهاد سواه يُعدّ إلى جانبه جهاداً أصغر منه لأنّه جهاد على مدى العمر، وفي كلِّ زمان ومكان لا يكاد يفارق الإنسان حتّى يتسامى على كلّ الشهوات والنزوات.

ومن هنا ركّز الإمام عليه السلام على أهمّ المقوّمات الّتي تدفع النفس للتزكية ومنها:

١. استشعار الرقابة الإلهيّة: فلا تتمّ التزكية إلّا باستشعار الرقابة الإلهية في العقل والضمير والوجدان، والإحساس بأنّ الله تعالى محيط بالإنسان يُحصي عليه حركاته وسكناته. وفي موعظته عليه السلام لبعض شيعته: «ويلك... كلّما عرضت لك شهوة أو ارتكاب ذنب سارعت إليه وأقدمت بجهلك عليه، فارتكبته كأنّك لست بعين الله أو كأنّ الله ليس لك بالمرصاد»[٢].

٢. التوجّه إلى اليوم الآخر: وجّه الإمام عليه السلام الجماعة الصالحة إلى ذلك اليوم ليجعلوه نصب أعينهم وليكون حافزاً لهم لإصلاح النفس وتزكيتها. وممّا جاء في موعظته لجماعة منهم: «... يا طالب الجنّة ما أطول نومك وأكلَّ مطيّتك، وأوهى همّتك، فلله أنت من طالب ومطلوب...»[٣].

(١) م.ن: ٢/ ٧٤.

(٢) تحف العقول، م.س: ٢١٢.

(٣) م.ن: ٢١٢ و٢١٣.

٣. تحكيم العقل: فالله تعالى خلق الإنسان مزوّداً بعقل وشهوة، ومنحه سبل الهداية من خلال البيّنات والحقائق الثابتة. ولهذا ركّز الإمام عليه السلام على تحكيم العقل على جميع الرغبات والشهوات، وأنّه لا بدّ أن يكون للإنسان واعظ من نفسه ليقوم بتزكيتها، فعنه عليه السلام: «من لم يجعل الله له من نفسه واعظاً، فإنّ مواعظ الناس لن تغني عنه شيئاً»(٤).

الإمام الباقر عليه السلام وبناء المؤسّسات الثقافيّة

كان للإمام الباقر عليه السلام دور كبير في تشييد وتوسيع المؤسّسات الثقافيّة الإسلاميّة، الّتي تنهج نهج أهل البيت عليهم السلام في نشر العلم والمعرفة. وكان له عليه السلام دورٌ رئيس في بناء وتأسيس مدرسة المدينة، حيث ازدهرت في أيّامه وإلى آخر أيّام الإمام الصادق عليه السلام قبل أن تنتقل إلى الكوفة ومن بعدها إلى قمّ. وقد انتظمت الحلقات الدراسيّة، وكان بيته عليه السلام جامعةً يزدحم فيها طلّاب العلوم وحملة الحديث، ينهلون من معينه الّذي لا ينضب.

الإمام الباقر عليه السلام وإحياء الروح الثورية

كان لثورة الإمام الحسين عليه السلام دور كبير في إحياء الروح الثوريّة، وإلهاب الحماس في العقول والقلوب والإرادة، لمقاومة الظالمين. ولهذا أكّد الإمام الباقر عليه السلام على جعل الثورة حيّة تمنح الناس طاقة ثوريّة لخوض المواجهة في دقّتها وظرفها المناسب.

وتجسّد إحياؤه للروح الثورية في مظهرين:

١. إقامة الشعائر الحسينيّة: فكان عليه السلام يقوم بنفسه بإحياء الشعائر الحسينيّة من خلال إقامة مجالس العزاء الحسينيّ في منزله. وبهذا الأسلوب العملي كان يحثّ شيعته وأتباعه على إقامة مجالس العزاء. وشجّع عليه السلام على ظاهرة البكاء لمصاب جدّه الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته الأحرار وذلك من أجل أن تتجذّر الرابطة العاطفية به عليه السلام. وحثّ على زيارة قبر الحسين عليه السلام بهدف تعميق الارتباط به فكراً ومنهجاً واستلهام روح الثورة منه، ومعاهدته على الاستمرار على نهجه.

٢. إنشاد الشعر في الإمام الحسين عليه السلام: حيث كان عليه السلام يشجّع على قول الشعر في الإمام الحسين عليه السلام لما في ذلك من إبقاء لمظلوميّة الإمام الحسين عليه السلام في الوجدان، وتخليد لذكرى

(٤) م.ن: ٢١٤.

مصاب أهل البيت عليهم السلام، ولقد كان الشعر أقوى وسيلة إعلامية في تلك الأزمان.

الإمام عليه السلام ونشر حقيقة الإمام المهديّ عجل الله فرجه

إنّ الصراع بين الإسلام والجاهليّة، وبين الحقّ والباطل، لا ينتهي ما دام كلّ منهما موجوداً وله كيان وقيادة وأنصار. ويستمر الصراع إلى أن ينتصر الحقّ على الباطل في نهاية الشوط. ويمثّل ظهور الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف آخر حلقة من سلسلة الصراع حيث يختفي الباطل ولا يبقى له وجود وكيان مستقلّ.

وانتظار الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف هو حركة إيجابيّة تتطلّب تعبئة الأفكار والطاقات للاشتراك في عمليّة الخلاص والإنقاذ.

وقد أكّد الأئمّة عليهم السلام على هذه الحقيقة ومنهم الإمام الباقر عليه السلام لكي تتعمّق في العقول والنفوس، فعنه عليه السلام: «إنّما نجومكم كنجوم السماء كلّما غاب نجم طلع نجم، حتّى إذا أشرتم بأصابعكم، وملتم بحواجبكم، غيَّب الله عنكم نجمكم، واستوت بنو عبد المطّلب، فما يُعرف أيٌّ من أيّ، فإذا طلع نجمكم فاحمدوا ربّكم»[1].

وجعل قيام الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف من المحتوم حين قال: «من المحتوم الّذي حتمه الله قيام قائمنا»[2]. وكان عليه السلام يُهيّىء الأذهان للتعبئة إلى ذلك اليوم ويقول: «إذا قام قائمنا وظهر مهديّنا كان الرجل أجرأ من ليث، وأمضى من سنان»[3].

وبهذا كان الإمام عليه السلام يُحيي الأمل بانتصار الحقّ وأفول الباطل. ويكون هذا الأمل عاملاً للانتظار الإيجابيّ البنّاء، انتظاراً يتضمّن الاستعداد الدائم والمستمرّ للنهوض تحت راية الحقّ.

---

(١) بحار الأنوار، م.س: ٥١/١٣٨.

(٢) م.ن: ٥١/١٣٩.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني: ٣/١٨٤، منشورات دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٤٠٩ هـ.

خلاصة الدرس

- انصبّ دور الإمام الباقر عليه السلام على إصلاح الواقع الفاسد والّذي كان يدور حول محورين أساسين:
  1. محور الأمّة الإسلاميّة، وهو محور النشاط العامّ.
  2. محور أتباع أهل البيت عليهم السلام ، وهو محور النشاط الخاصّ.
- في المحور الثاني: عمل الإمام عليه السلام على بناء الجماعة الصالحة، وجعل لها مميّزات حيث أسّس لهم العقيدة والثقافة الإسلاميّة، وجعل مرجعيّتها أهل بيت الوحي.
- كان للإمام عليه السلام منهج مميّز في التربية والتزكية لشيعته، من خلال إشعارهم بالرقابة الإلهيّة وتوجيههم إلى اليوم الآخر وتحكيم العقل.
- كان للإمام الباقر عليه السلام دور كبير في تأسيس الثقافة العلميّة ونشر المعرفة.

أحيا الإمام S عليه السلام الروح الثورية في الأمّة، وأقام الشعائر الحسينيّة، ونشر حقيقة الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف.